كراسات تراثية

التراث في أتون الحروب

المخطوط العربي من القرن الخامس حتى اليوم

تأليف
د. بغداد عبد المنعم

تقديم
د. فيصل الحفيان

١



معهد المخطوطات العربية

التراث في أتون الحروب

لم يكن الهدف الرئيس لهذه الكراسة مسحًا ببليوغرافيًا، أو فهرسةً وصفية، أو جردًا إحصائيًا للمخطوطات العربية؛ ما بقي منها، وما ضاع، وما هو مجهولُ المصير، بعد الأحداث العظيمة التي شهدتْها المنطقة العربية منذ مطالع العقد الأخير من القرن الماضي، حتىٰ اليوم.

إنه كتاب يطمح إلىٰ أنْ يكون مقدمة مرجعيّة فيْ رصد الآثار التي خلفتْها الحروب والصراعات علىٰ التراث العربي المخطوط، وذلك منذ أن غدا هدفًا بذاته، مع الحملة الصليبية الأولىٰ في نهايات القرن الخامس الهجري.

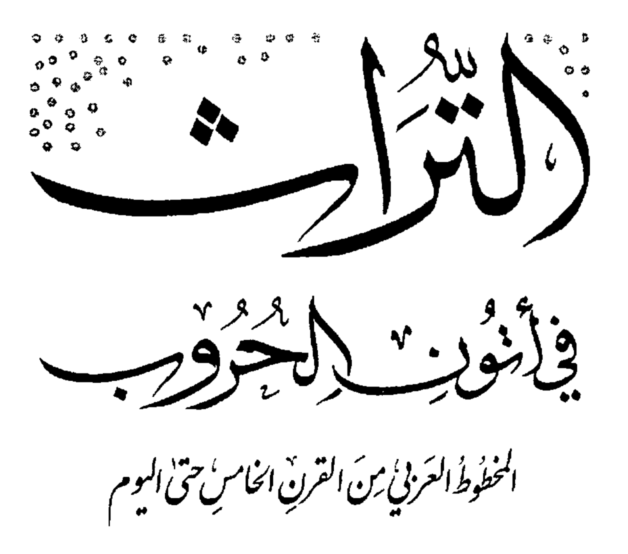
إن الوسطية المكانية التي تتمتع بها المنطقة العربية في العالم، والجِسرية التاريخية العميقة التي حملتْها حضارتها، كانت من أبرز السمات التي وضعت هذا التراث أمام تناقض مستمر؛ طرفا هذا التناقض هما الحرب والمعرفة.



كراسات تراثية







تأليف
د. بغداد عبد المنعم

تقديم
د. فيصل الحفيان



- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية.

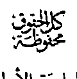
التراث في أتون الحروب (المخطوط العربي من القرن الخامس حتى اليوم) / بغداد عبد المنعم. - ط. ١. - القاهرة: معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
١٧٦ص، ٢١×١٤.٥سم.
ط/٢٠١٤/٠٢/٠٠٢

- الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، مصر.

التراث في أتون الحروب (المخطوط العربي من القرن الخامس حتى اليوم) / بغداد عبد المنعم، تقديم: فيصل الحفيان. - ط. ١. - القاهرة: معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠١٤م.
١٧٦ص، ٢١×١٤.٥سم.
رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٧٧٩٥
تدمك: 978-977-5301-27-7
١- التراث العربي. ٢- المخطوطات.
٣- أثر الحروب على التراث. ٤- العنوان.

- معهد المخطوطات العربية Institute of Arabic Manuscripts

٢١ ش المدينة المنورة - المهندسين، القاهرة.
ص.ب ٨٧ - الدقي - القاهرة - ج.م.ع .
هاتف ٣٧٦١٦٤٠٢ - ٣٧٦١٦٤٠٣ - ٣٧٦١٦٤٠٥ (+٢٠٢)
فاكس ٣٧٦١٦٤٠١ (+٢٠٢)



الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

كلمة

لقد خرج هذا الكتاب من نفق الموت.

من قلب الظروف الصعبة العاتية التي تعيشها مدينة حلب.

أنهيتُ كتابتَهُ بين محاولاتٍ متواصلة للوصول إلى العتبة الأولى من شروط الحياة، فقد أطبقتْ الأزماتُ كلُّها فوق صدر المدينة حتى ظلَّلتْها سماءُ الصبر.

لم ينفصل هـذا الكتابُ؛ لا بمضمونه ولا بعنوانه عن الواقع القائم، فلحظاتُ الكتابة فيه تشبهُ لحظاتِ الدفاع عن الحياة والتمسُّك بالهُوية وبالتراث العظيم.

ما زالت حلب غنيـةً بروحهـا؛ تلك التي تحفظُ بهـا «شيفرات» استرداد كل ما فقدتْه، ومنه تراثها.

حلب في:

٢٠١٣/١١/١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

(استشراف)

الحرب على التراث لا تنفكُّ أبدًا عن تراثه، والقتل الذي يتوجه إلى الحياة يتوجه بالدرجة نفسها من القصد والعنف إلى ذاكرته الحضارية.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحابته، وبعد،

فإن الفكرة العامة لهذا الكتاب، بل فكرة هذه السلسلة الجديدة «كراسات تراثية» ترجع إلى الحقبة المصرية الثانية للمعهد، فقد كان المعهد في الحقبة المصرية (الأولى) التي تمتد من إنشائه (١٩٤٦) حتى أوائل الثمانينيَّات، ثم في الحقبة الكويتية (عقد الثمانينيَّات من القرن الماضي) مشغولًا بالنص التراثي انشغالًا: استطلاعًا بوساطة التقارير التي كتبها عنه في مناطقَ مختلفة داخل الوطن العربي وخارجه، وإنقاذًا عبر بعثات التصوير التي أوفدها، ودورات الترميم التدريبية التي عقدها، وفهرسةً من خلال سلسلة القوائم والفهارس التي أعدَّها ونشرها مستقلَّة، وفي مجلته، وتحقيقًا متمثلًا هذا الجانب الأخير في النصوص المهمَّة التي نشرها.

ومنذ عاد المعهد إلى القاهرة عقيب حرب الخليج الأولى (١٩٩١)

أصبح مسكونًا بهاجس أن قضايا التراث المخطوط لا تنحصر في «النص» فثمة فلَك آخر، وقد تجلَّت هذه النَّقْلة النوعية في الموضوعات التي أثارتها بحوث الهيئة المشتركة لخدمة التراث العربي التي نُشرت لاحقًا عام (٢٠٠٢) تحت عنوان «التراث العربي: قضايا الحاضر وآفاق المستقبل» وكان ذلك صريحًا أشد ما يكون الصراحة في مسائل من مثل إشاعة الثقافة التراثية، والانتقال بالتراث من النص إلىٰ الخطاب، كما كان ناضجًا وإستراتيجيًّا في محور رئيس جرىٰ الحديث فيه عن مشروعٍ لخطة شاملة للتراث العربي المخطوط.

كان هذا الوعي الجديد بطبيعة التراث ووظائفه، وواجب المعهد ومسؤولياته تجاهه قد بدأ في التشكُّل، وتضافرت عوامل عدة في صياغة هذا الوعي، منها أن الدور الذي كان مُسندًا إلىٰ المعهد في العقود الأولىٰ لا بدَّ من إثرائه، ومنها أن العالَم الذي انقلب انقلابًا مع ثورة الاتصالات والمعلومات يستلزم بالضرورة الإفادة من منجَزات هذه الثورة في خدمة التراث، ثم إن هذا الزمن الجديد بالكلية الذي يمور فيه عالَمنا الكبير بالسياسة والإعلام والأفكار والأحداث، وتتردَّد أصداء ذلك في عالَمنا الكبير / قريتنا الصغيرة، رمىٰ بثقله علىٰ التراث، فظهرت قضايا تراثية جديدة، وما عادت القضايا القديمة (الكلاسيكية) هي هي، لا في طبائعها، ولا في طُرق معالجتها.

في عام ٢٠١٠ عقد المعهد مؤتمر «مستقبل التراث - ١» في القاهرة (النسخة المشرقية) ، وفيه وقع الحديث عن وظيفة التراث وتجاذباته، وقراءات التراث وحدود مساءلته، والتراث بين الموقف منه والعمل فيه، والتراث بين الحضور والغياب، والمسؤولية تجاهه (جدلية الغايات والوسائل) والثابت والمتحول فيه، وأسئلة المستقبل.

وفي عام ٢٠١١ عُقد المؤتمر الثاني تحت العنوان نفسه «مستقبل التراث - ٢» وكان في الرباط (النسخة المغربية) وأُثير سـؤال تأسيسي كبير ذو ثلاث شُعَب: المشروعية والمشروع وسؤال التجديد.

بذلك تكرَّست الرؤية الجديدة التي قد لا تجد قبولًا عند بعض أهل التراث الذين يرون أن للمعهد وظيفةً لا ينبغي له أن يُجاوزها، هي تلك التي استقرَّت له، لكننا - مع تقديرنا للرأي الآخر - نؤمن بأن العمل في التراث، بل التفكير فيه، شأنُه شأنُ حياتنا، أصبح أمرًا آخر، لا بدَّ أن يتواءم مع الجديد، شأنُنا مع حياتنا التي لم نعد نملك إلَّا أن نتواءم معها، ولكن مع الحفاظ على الخصوصية، وعدم السقوط في شَرَكي الجمود والانسلاخ.

❋

«كراسات تراثية» التي نستهلُّها بهـذا الكتاب هي سلسـلة جـديدة لا تنشر نصـوصًا، إنما تعـالج قضـايا التراث ذات الصـوت العـالي اليوم، بمقاربات جديدة، وهي قضايا قد تكون علميَّة متخصِّصة، وقد تكون ثقافية تنظيرية، وقد تكون مزيجًا من هذا وذاك. إن بعض قضايا التراث اليوم تتماهى مع قضايا السياسة والإعلام والاتصال والتكنولوجيا، وإن قضايا التراث أصبحت اليوم أكثر عصرية من قضايا العصر ذاته.

هذه أول كراسة من كراساتنا، موضوعُها أشدُّ إلحاحًا من أي موضوع آخر، فالحروب والصراعات المتلاحقة والمتعددة التي تشهدها المنطقة العربية وتأثيراتها أكبرُ مما يتخيل المرء، وفي صلب هذه التأثيرات يأتي التراث العربي (المخطوط) الذي عانى ويعاني الكثير في العصر الحديث، ومن العلامات الفارقة في معاناته ما نتج عن الاحتلال الإسرائيلي (١٩٤٨) لفلسطين، مرورًا

بحربَي الخليج الأولىٰ والثانية في تسعينيَّات القرن الماضي، وهي معاناةٌ مستمرة حتىٰ اليوم، نشهدها اليوم في ما يحدث في سورية والعراق، إضافة إلىٰ اليمن وليبيا، ولا ندري إلىٰ أي مدىٰ تتسع، وفي أي صَوْب تتَّجه.

تُركز هذه الكراسة علىٰ ثلاثة بلدان: سورية وفلسطين والعراق. وبحسب الرؤية التي تصدر عنها فإن وضع الأحداث الحاضرة في إطارها النظري استلزم استدعاء الذاكرة؛ التاريخ، حتىٰ تستقيم الرؤية الكلِّية لإشكالية التراث والحرب.

لقد اقترحنا الفكرة علىٰ د. بغداد عبد المنعم، وكان أن استجابت مشكورة، فكتبتْ هذه السياحة العميقة في موضوع جدِّ خطير، يقوم علىٰ ساقين: ساق التاريخ للتأصيل، وساق الحاضر لرصد الواقع الذي آل إليه التراث في البلدان الثلاثة، وقد عبَّرت عن ذلك بأنه (الموضوع) مِفْصلٌ عميق بين ماض طويل حكمته ظروف تاريخيَّة كثيفة وإشكاليَّة، ولحظة راهنة شديدة السخونة والتغيير.

وكانت اللقطة الأولىٰ التي قيدتْها هي مستند التمهيد، الذي تجلَّىٰ في عنوانه «التراث بين الخوف منه والخوف عليه» الخوفُ منه مصدره الآخر، وكان هذا واضحًا في الاعتداء عليه من جهة، والاستيلاء عليه من جهة، والخوفُ عليه من أهله، وكان هذا، خاصة في العصر الحديث، غائبًا، أو شبه غائب، فهو خوف يفترض أن يكون، أو ينبغي.

إن المقولة الأساسية التي تتبنَّاها الدراسة هي أن الحرب علىٰ الإنسان لا تنفكُّ أبدًا عن تراثه، وأن القتل كما يتوجَّه إلىٰ الحياة يتوجه أيضًا بالدرجة نفسها من القصد والعنف إلىٰ عقله، وتحديدًا إلىٰ ذاكرته الحضارية (تراثه).

وترجع الباحثة بفكرة الاعتداء على التراث إلى القرن الخامس الهجري الذي جرت فيه أول عملية إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، والملاحظ أن المدن (العواصم) بخاصة كانت الهدف، ذلك أنها المركز المستقطِب لكل إمكانيَّات الإنسان والمكان معًا.

لقد وقع التراث تحت الرحى؛ رحى التاريخ: الإحراق والإغراق في الشام والقدس وبغداد وقرطبة وغرناطة، وكان الأمر يتم بمراسيمَ ملكية ! ورحى الحاضر الذي علا فيه صوت السرقة بعد أن نضج وعي الآخر بأهمية التراث، وكان القصد أيضًا إلى المناطق نفسها: سورية وفلسطين والعراق.

وصار واضحًا أن سرقة التراث هي البوَّابة لسرقة التاريخ والجغرافيا جميعًا، إضافة - بالطبع - إلى سرقة الإنسان نفسه.

تقع الدراسة في ثلاثة فصول، فصلها الأول لعاصمتي التراث المخطوط في سورية (حلب ودمشق)، وفصلها الثاني لفلسطين، وفصلها الثالث للعراق. وقد حرصتْ على أن تسجِّل عبر ثلاثية الجغرافيا والتاريخ والحاضر أماكن المخطوطات وما تعرَّضت له من أخطار عبر ألف عام، وما آل إليه حالها اليوم، وقد سيطرت على معجمها اللُّغوي - للأسف - ألفاظ الاندثار والخراب والهدم والدمار والنهب والفقد والضياع !

ومن فضائل هذه الدراسة الجداول (٤٤ جدولًا) التي سندت اللغةَ بالأرقام وبالعناوين المحددة وبالأوصاف الدقيقة.

* *

إن المعهد سعيد إذ يضع أمام الباحثين وأصحاب القرار والغيورين على التراث هذه الوثيقة، ولا يسعه إلا أنْ يشكر الباحثة الجادَّة على الجهد الذي بذلته، في ظروف صعبة للغاية، فقد كتبت هذه الدراسة في مدينتها

(حلب) تحت النار، ووسط معاناة كبيرة، في الحركة والوصول إلىٰ المصادر، وفي اقتناص الفرص القليلة التي تحضر فيها الكهرباء وأسباب الحياة !

وبعد، فلا يستقيم أن أنهي هذه الكلمة العجلة دون أن أنوِّه برعاية «المنظَّمة» للمعهد، وأن أتوجه بالشكر إلىٰ معالي المدير العام الأستاذ الدكتور عبد الله حمد محارب، الرجل المسكون أصلًا بالتراث؛ المهموم به، الشديد الوعي بخطره، فإنه مذ تولَّىٰ المسؤولية وعينه علىٰ المعهد، الذي كان مديره يومًا، توجيهًا ورعاية ومساندة.

د. فيصل الحفيان

مدير معهد المخطوطات العربية

القاهرة: ٢٠١٤

تمهيد

التراث بين الخوف منه والخوف عليه

الحرب هي الحدث المستمر في أوراق التاريخ، وإنَّ القوة الكامنة في ملايين الأوراق (المخطوطات) الحاملة لمحصولات ثقافية متراكمة ستكوِّن حضورًا إشكاليًّا وسط زوبعات الحروب وضجيجها.

في البدء

لن يكون الهدفُ الرئيس لهذا الكتاب «مسحًا» أو فهرسةً أو إحصاءاتٍ للمخطوطات العربية؛ ما بقي منها، وما ضاع، وما هو مجهولُ المصير، بل إنه يطمح إلىٰ أنْ يُشَكِّلَ مقدمةً ترصد الآثار التي خلفتها الحروبُ علىٰ هذا التراث المخطوط، سواء كانت مباشرة، أو غير مباشرة، وذلك منذ اللحظات التي غدا بها التراث العربي المخطوط مستهدَفًا لذاته، أي منذ الحملة الصليبية الأولىٰ في نهايات القرن الخامس الهجري إلىٰ عصرنا الذي تعيشُ فيه المنطقةُ العربية تغييراتٍ واكبتْها حروبٌ وصراعات لم يسبق لها مثيل.

ولئن كان موضوع التراثُ المخطوط يلامسُ ملامسةً عُمقَ تاريخنا، ويجعل استنادنا إلىٰ المصادر والمراجع (المنشورة) أمرًا لا بدَّ منه، فإنَّ تقنياتِ اللحظة الراهنة وتسارعاتها فرضت علينا مرجعية جديدة، تتعلَّق

بأوعية المعلومات الإلكترونية (الإنترنت)، في حين ستشكل المصادر الشفهية الميدانية مُتَّكأً حيويًا آخر لهذا الموضوع. إن السَّويَّة المرجعية في النص التاريخي تقليدية وثابتة، أما المرجعية الميدانية التي تعتمد المشاهدة المباشرة أو حديث (شاهد العيان) فستكون مهمةً أيضًا، ولعلها تحمل أهمية مستقبلية ما لهذا التراث، وستكونُ الفهارس أو ما تبقّىٰ منها جزءًا من هذه المرجعية؛ لكونها سجلاتٍ ثابتةً في زمن كتابتها وإصدارها.

إن الموضوع الذي نعرِض له شديدُ الفرادة ! مِفْصلٌ عميق بين ماضٍ طويل حكمته ظروف تاريخية كثيفة وإشكالية، ولحظةٍ راهنة شديدة السخونة والتغيير علىٰ نحو لعلَّه لم يحدث بهذا الشكل في تاريخ المنطقة العربية كلها.

المفصل هو التراث المخطوط بوجوده الهائل عددًا ومكانًا، هذا العدد الذي يُراوِحُ في منطقة الملايين الثلاثة[1] أو الأربعة، ويتناثر شرقًا وغربًا في معظم عواصم العالم ومدنه.

لقد أنتجتْ الحضارةُ العربية خصوصياتٍ عدةً كان التراث المخطوط - بوصفه ثروة كامنة - إحدىٰ هذه الخصوصيات، مثلما كان الانفتاح والليونة خصوصياتٍ معنوية أخرىٰ في هذه الحضارة، كسرتْ إلىٰ حدٍّ كبير طوقَ حقوق الملكية الحضارية العربية لهذا التراث، لنجدها بعد قرون الذروة (من القرن الرابع الهجري حتىٰ منتصف القرن السابع) تُدْخَل - بتراثها المخطوط - غرفة عمليات الاستشراق. وتلك قضية أخرىٰ كبيرة، لكننا لا بد أن نشير إلىٰ أن الحروب والظروف العالمية قد عَطَّلت بشكل ما منتجي هذا التراث وصانعيه، وجعلت منهم - بدءًا من لحظات تاريخية مُحددة - خارج التأثير المفترض علىٰ هذا الإرث الهائل، وهكذا بقي هذا

---

(١) مشكلات التراث العربي، صلاح الدين المنجد، مقال، ص١٤٢، مجلة عالم الكتب، مج١، العدد ٢ - شوال ١٤٠٠هـ.

التراث المليوني العربي لأصحابه أشبهَ بأسطورة غامرة، فقد أخضعوه للشعارات و«الأدلجة» السطحية، وظلَّ بعيدًا عن أن يكون مؤثرًا في هُويتهم التي هم في أمسِّ الحاجة إلى تكوينها في هذا العصر.

إنَّ الوسطية المكانية التي تتمتع بها المنطقةُ العربية في العالم، والجسريةَ التاريخية العميقة التي حملتها حضارتُها، هي سمات وضعتْها أمام تناقض مستمر؛ طرفا هذا التناقض هما الحرب والمعرفة؛ الحرب والتراث، ومن ثَمَّ الحرب والتراث المخطوط.

أما الحرب فقد أتتْها من شرقها الآسيوي البعيد نسبيًّا، ومن غربها الأوروبي القريب، وأمَّا التَشَكُّلاتُ المعرفية وتناميها، فكانت أداءَها الحضاري القائم دومًا في بنيتها.

هذه الوسطية وهذا «التجسير» الذي كان قدرَها، جعل منها حضارةً بدون عُقد ولا توجُّسات، وأنتج جانبها المنفتح على الآخر، وربما كان ذلك سببًا من الأسباب التي أوقعتها في مآزق كبيرة، فقد بدأ الاستحواذ والحرثُ في تراثها المخطوط بتربته الخصبة البكر، ومن ثَمَّ تعَرَّضت للطمس، فاختفى الزمن الحضاري العربي في التاريخ (العالمي) الذي حرَّره الغربُ معتمدًا منجزاته التاريخية بأصولها اليونانية - اللاتينية، ومستبعدًا المنجزات العربية السَّامقة في عملية إنكار غير مسوَّغ لم يعرف العالم مثلها حتى الآن. كان السببُ في ذلك (الحروب) والفارق النفسي الجمعي بين حضارتين مَكَّنتا في وسط العالم، وتبادلتا الجلوس على كرسي الحضارة عبر القرون.

لدينا - إذن - الملايينُ من كتبنا لم تدنُ بعد من المطبعة، لما تزل بخطوط وأحبار النُّسَّاخ، أو بخطوط مؤلفيها، أو لعلها قد تكون نسخة وحيدة باقية. بعض هذه المخطوطات تجاوز عُمرُها ألفَ عام، وجزءٌ منها يتمتع

بقيمة فائقة، فليس في أوراق المخطوطات أنساقٌ من الأفكار والمعاني والشروح والنظريات فقط، بل إن المخطوطة العربية وثيقة بحدِّ ذاتها بما تحملُهُ من أبعاد. إنَّ ما نسميه الآن مخطوطة كان في زمن كتابتها وما بعده مساحةَ حوار مفتوح عبر الأزمان، فهناك الحواشي والتعليقات، وهناك التحريرات، وهناك الردود، وهناك المختصرات والتلخيصات، وهناك التعليقات... وأمور أخرىٰ. إن النسخة الخطية تظلُّ عرضةً للنقد والتعليق من قِبَل قارئ ما أو متلقٍّ آخر. كان المؤلِّف أو الناسخ للمخطوط يستعمل هذه الحواشي لِمَا يستدركه من السَّقط الواقع في الكلام، كما كانت حيزًا يستعمله القراء والدارسون، فيكتبون فيها تعريف المصطلحات، أو يثبتون الفروقَ بين النسخ، أو يضيفون تعريفاتٍ وتراجمَ لبعض الأعلام، أو شروحًا وآراء علىٰ الأفكار الواردة.

الحرب .. من الحدث إلىٰ المعنىٰ

الحرب هي الحدثُ المستمرُّ في أوراق التاريخ، هذا الحدث الذي له أسباب متعلقة دومًا بقُوىٰ مباشرة؛ عسكرية واقتصادية في واقعنا الحالي. إن (القوة الكامنة) في ملايين الأوراق الحاملة لمحصولات ثقافية متراكمة، والمتمثلة في التراث المخطوط، ستكوِّن حضورًا إشكاليًّا وسْط زوبعات الحروب وضجيجها. وحين ننتقل من الحرب بوصفها حدثًا إلىٰ الحرب بوصفها معنًى، لن نكون بالتأكيد أمام احتمال وحيد لتعريفها، بل سنكون أمام تعريفات ذات سويَّات مختلفة، سنحاول أن نتطرق أولًا لأقربها إلينا، فقد جاء في لسان العرب:

«الحرب: نقيض السلم، أنثىٰ، وأصلها الصِّفة، كأنها مُقاتَلَةٌ حربٌ. وجمعها حروب. ودار الحرب: بلادُ المشركين الذين لا صُلح بينهم وبين

المسلمين. وقد حاربه محاربة وحِرابًا. وتحاربوا واحتربوا وحاربوا بمعنًى. ورجل حَرْبٌ ومِحْرَب ومِحراب: شديد الحرب. والحَرَبُ بالتحريك: أن يُسْلب الرجل ماله، من حَرَبَه يحرُبُه، إذا أخذ ماله. وحريبته: مالُه الذي سُلِبَهُ، ولا يسمَّىٰ بذلك إلا بعدما يُسلَبهُ. وقيل: حَريبة الرجل: مالُه الذي يعيش به، تقول: حربه يحربه حربًا، إذا أَخذ ماله وتركه بلا شيء. الأزهري: يقال حرب فلانٌ حربًا، فالحرب: أن يؤخذ مالُه كلُّه، فهو رجل حَرِب، أي نزل به الحرب. الحارب: المُشَلِّح، أي الغاصب الناهب الذي يُعرِّي الناس ثيابهم»[١].

ويمكن أن نلاحظ أن المعنىٰ العربي للحرب ارتبط ارتباطًا لزوميًّا بأخذ شيء من الآخر الواقعة عليه الحرب، حتىٰ إن (الحارب) هو الغاصب النّاهب. إن المعنىٰ العربي ربط الحرب بهدف استلابي اقتصادي.

فإذا ما غادرنا هذا المعنىٰ العربي التاريخي للحرب إلىٰ معان أخرىٰ جديدة من ضفافٍ أبعدَ ليست من وضع العرب، ذلك أن العرب لم يجدِّدوا معجماتهم بعد ! فإننا سنجد:

«الحرب - حالةُ نزاع مسلح بين الدول أو الشعوب أو الطبقات، ولذا فإن فهم مضمون الحرب، وطابعها وأهدافها يتطلب تِبيان ما هي المصالح التي تنعكس في الحرب المعنيَّة، وما هي السياسة التي تنتهجها الحكومات المشاركة فيها؟ وبما أن السياسة تعبير مكثف عن الاقتصاد، فإن الأسباب الأخيرة للحرب تكمن في الميدان الاقتصادي. (فهناك) تمييز بين حروب عادلة وأخرىٰ غير عادلة، فالحروب غير العادلة تهدف إلىٰ الاستيلاء علىٰ أراضي الغير، واسترقاق الشعوب، وإعادة تقاسم العالم، أما الحروب العادلة فهي التي تُخاض في سبيل التحرُّر من الاضطهاد، وتهدف للدفاع عن

---

(١) لسان العرب (ح.ر.ب).

النفس. وفي كل عصر يتحدَّد مضمون الحرب بالظروف المميّزة للمرحلة التاريخية المعنية»[١].

وهذا تعريفٌ للحرب قادمٌ من ضفة بعيدة جاهدت المعاني فيه لتجعل المصالح الطبقية سببًا للحروب، ومن ثَمَّ فقد ربطتْ بين السياسة والاقتصاد. ويمكن أن نلاحظ أنه تعريف تضمَّن تحميل الحرب بالمبادئ والقيم (حروب عادلة وحروب غير عادلة).

وثَمَّ شكل من أشكال الحروب سيكون له حضور في الواقع الحالي في بعض أجزاء المنطقة العربية. وستتعرض مجمل المنجزات والوثائق التاريخية، ومنها التراث المخطوط لآثار هذه الحرب؛ تلك هي الحرب الأهلية. أكثر أشكال الحروب حدَّة هو الشكل الذي يلازم عهود الانعطاف في تاريخ البشرية، ويحدث به الانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية إلى أخرى. وتتميز الحرب الأهلية بضراوتها وقسوتها، هي حربٌ داخلية على أية حال. وأيًّا كانت الحرب بوصفها معنًى فإنَّ مجرد وقوعها سيؤدي إلى دمار كلِّيٍّ أو نسبيٍّ، وليس بإمكاننا دومًا التكهُّن السريع بعودة التوازن وإعادة البناء.

تلك كانت لمحةً سريعة عن بعض تعريفات الحرب القادمة من جهات مختلفة ومن سويَّات زمانية مختلفة، وفي مجملها مضمونٌ من (الاستيلاء) وتقويض قوة الآخر، ونزوعٌ إلى توازن ما.

الحرب .. حرب على الإنسان وتراثه

ولعل المنطقة العربية من أشد المناطق سخونةً عبر التاريخ إلى الآن، مما جعلها عرضةً لإشكالات حضارية عميقة تتعلَّق أحيانًا بوجودها وهويتها. في أزمنة متقاربة احترقتْ هذه المنطقة، وكان للحروب الدائبة في مدنها

---

(١) المعجم الفلسفي المختصر (ح.ر.ب).

وفوق أرضها آثارٌ سلبية على خزائن مكتباتها وما فيها من مخطوطات. كانت هذه الآثار مباشرة ومادية؛ إذ كان يجري إعدام المخطوطات إغراقًا أو إحراقًا، في حين كان من نتائج الحروب والمراحل التالية لها من أوقات «باردة» أو حرب غير مباشرة، أنْ يتعرض هذا التراث للسرقة والتهجير إلى خارج خزائنه الأصلية ومدنه؛ إلى خزائن ومدن بعيدة، مما أدخله في عمليات ثقافية مشكلة!

في نهايات القرن الخامس الهجري هاجمت الحملةُ الصليبية الأولى[١] (٥٠٣هـ/١١٠٩م) مخطوطات مكتبة بني عمَّار[٢] في طرابلس الشام، فأحرقتها، ثم أغرقتها في النهر (نهر أبي علي)، وكان ذلك أولَ وأضخم إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، فقد قُضي على مئة ألف مخطوط[٣] من المجاميع الكبيرة الواسعة في مجالات العلوم والأدب والفلسفة والفلك، وهي مخطوطات نفيسة وصفها المؤرخون بفخامة التجليد وجودة الزخرفة والتذهيب.

وخلال مئتي سنة استغرقتها هذه الحملات جرى تدمير كثير من خزائن التراث المخطوط في المدائن الشامية، ومنها خزائن المسجد الأقصى في القدس وسائر المدن الفلسطينية، وكانت الصدمة الأولى حين دخل الصليبيون مدينة القدس في سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م) فأجهزوا على بنيتها البشرية والثقافية.

---

(١) الحروب الصليبية (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م). وهي ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية. وقد انتهت بإبعادها نهائيًا من المنطقة العربية على يد المماليك في نهاية القرن السابع الهجري.

(٢) أسرة من قضاة طرابلس كان لها إمارة مستقلة (٤٦٢-٥٠٣هـ/١٠٧٠-١١٠٩م) حكمت الساحل السوري حتى اللاذقية، اشتهرت بمكتبتها الكبرى وبكفاحها ضد الصليبيين، سقطت بأيديهم عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م.

(٣) قُدِّر عدد مخطوطات مكتبة طرابلس بمليون مخطوطة (خطط الشام، محمد كرد علي ١٩١/٦).

ويذكر المؤرخون أنهم «... في المسجد الأقصىٰ قتلوا ما يزيد علىٰ سبعين ألفًا، فيهم جماعاتٌ كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعُبَّادهم، وزُهَّادهم الذين جاوروا بذلك الموضع الشريف»[١]، وكان مصير المخطوطات العربية في معظم مدن بلاد الشام هو مصير مخطوطات القدس.

من بين أهم الخزائن التي دمرتْها الحروبُ الصليبية، خزانة (أسامة ابن منقذ) صاحب قلعة شيزر قرب حماة في سورية «فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة»[٢]، وقبل أن تنحسر الحملاتُ الصليبية نهائيًّا عن المشرق العربي، وفي منتصف القرن السابع الهجري اجتاح المغول بغداد، وأغرقوا مخطوطاتها في دجلة. ومع نهاية القرن التاسع الهجري تشهدُ أوروبا في جزئها الجنوبي إعدامًا هائلًا جرىٰ فيه إحراق مليون مخطوطة عربية وغير عربية من خزائن قرطبة وغرناطة أمام الملكين المنتصرين فرديناند وإيزابيلا[٣].

غير أن هذا الانهيار في التراث العربي المخطوط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين لم يكن هو البعد الوحيد للأحداث والحروب، بل إنَّ الوجود العربي والإسلامي قام بالرد علىٰ هذه الحروب الشرسة التي أطبقت عليه من الشرق ومن الغرب، بمعركتين حملتا طابعًا عالميًّا؛ لأنهما غيَّرتا التوازنات العالمية التي كانت قائمة لصالح الوجود العربي وتراثه المخطوط، كانت هاتان المعركتان العالميتان الشهيرتان حطين (٥٨٣هـ-١١٨٧م)، وعين جالوت (٦٥٨هـ-١٢٥٩م) الأولىٰ فكَّكت الوجود الإفرنجي،

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠/٢٨٣-٢٨٤.

(٢) خطط الشام ٦/١٩٢.

(٣) فرديناند الثاني (٨٥٦-٩٢٢هـ/١٤٥٢-١٥١٦م) وهو المعروف بالكاثوليكي، ملك أراغون ثم ملك قشتالة بعد زواجه من وارثة عرش قشتالة إيزابيل، أخذ غرناطة من العرب عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م.

والأخرىٰ حَجَّمَتْ وأوقفتْ الاجتياحات المغولية، مفصلان عالميان (بحسب المرجعية العربية والإسلامية لمفهوم «العالمية» وليس بحسب المرجعية الغربية) وذلك بصفتهما التصديرية والتأثيرية، ولهذين الحدثين الحربيَّين علاقة بإعادة بناء المكتبة العربية بخزائن مخطوطاتها، وسوف تشهد المدنُ الثلاث المهمة في الإستراتيجية الأيوبية (دمشق وحلب والقدس) كثافةً في بناء المدارس وتزويدها بخزائن المخطوطات، وبعضها سيستمر في وظيفته التعليمية ومخطوطاته حتىٰ بدايات القرن العشرين، بل حتىٰ منتصفه.

جدول (١)

علاقة الحروب التاريخية بالتراث العربي المخطوط

الحرب	تاريخها	أثرها
الحروب الصليبية ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية	٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م	تدمير خزائن المخطوطات في القدس ودمشق وحلب وطرابلس الشام، ثم انتهابها في ما بعد
معركة حطين	٥٨٣هـ/١١٨٧م	إعادة بناء خزائن المخطوطات في القدس وحلب ودمشق
الاجتياح المغولي لبغداد	٦٥٦هـ/١٢٥٨م	إغراق خزائن بغداد في نهر دجلة
معركة عين جالوت	٦٥٨هـ/١٢٥٩م	تحجيم الوجود المغولي. التمكُّن من تأسيس بُنىٰ ومؤسسات ثقافية علمية وتعليمية علىٰ قاعدة عريضة من خزائن المخطوطات
سقوط غرناطة	٨٩٨هـ/١٤٩٢م	حرق المخطوطات في حادثة علنية مشهورة في ساحة الرملة بغرناطة. متابعة إعدام المخطوطات العربية أينما كانت في نطاق غرناطة وأريافها بوساطة محاكم التفتيش وقراراتها

من حروب التاريخ إلىٰ حروب الحاضر

كان الهدف الرئيس للحروب التي أطبقت علىٰ المنطقة العربية هو المدن؛ والمدن العواصم بخاصة، وذلك لأنها المركز المستقطِب لكل إمكانيات المكان والإنسان معًا. فالتراث العربي المخطوط بدأ بالتشكل والتراكم في تلافيف المدن وأعصابها الرئيسة، وحالما استوتْ بغداد عاصمةً لدولةٍ كبرىٰ في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، تكاملتْ خزائنُ مخطوطاتها، وغدتْ جزءًا من مؤسسات الدولة، فقد كان يقوم علىٰ إدارتها نسقٌ من الموظفين (الوكيل - الخازن - المشرف) وأصبحتْ مُعَبِّرَةً عن كل ما هو موجود في العالم في ذلك الوقت بعد أن جرىٰ إنتاجه بوساطة البُنىٰ الثقافية العربية، فتطورت بذلك نواةٌ عظمىٰ من كتب عربية مخطوطة ذات محتوىٰ فكري وعلمي جديدَين. وبُعيد الذروة الحضارية العربية حتىٰ الآن تكون المنطقة العربية عمومًا وبلاد الشام والعراق خصوصًا قد أصبحتْ هدفًا لحروب كارثية، وتعرَّضتْ تلك المدن العائمة علىٰ محيط من المخطوطات إلىٰ صدمات التخريب والتدمير التي كانت تنال بقسوة وتَشَفٍّ من هذه الثروة الفكرية والحضارية !

ويمكن القول إنَّ (المخطوطات العربية) بتاريخها وواقعها الذي يجب أن يكون، تنتمي إلىٰ مدنها أكثر مما تنتمي إلىٰ (دولها)، فهذه الدول بحدودها وتفصيلاتها من مواليد القرن العشرين، وليست إلا إحدىٰ نتائج الحربين العالميتين، ولما تبلغ أيةُ دولة منها من العمر حتىٰ قرن واحد ! في حين إن مدنًا مثل دمشق والقدس وحلب هي مدنُ آلاف الأعوام المتراكمة، ومدينةً مثل بغداد يكونُ عمرُها قد تجاوز ألف عام ببضعة قرون. هذه العواصم تبادلت التأثير في دائرة مكانية واحدة منذ الفتح الإسلامي بل حتىٰ قبل الإسلام، وبقيت مفتوحةً أمام العلماء والمخطوطات، وغابت عنها الإقليمية والحدود، فكان هناك من العلماء مَنْ قطع آلاف الأميال عن موطنه الأصلي

ليدْرُس أو يُدرِّس في مدينة غير التي ولد ونشأ فيها، وإنَّ كتب التراجم تُظهر بوضوح الاختلاف بين موطن ولادة العلماء ومكان تدريسهم ووفاتهم، فمعظم العلماء كانوا يقومون برحلة أو رِحْلات بين مدينة ولادتهم ومدينة إقامتهم، وهناك أحيانًا مدينةٌ ثالثة تُشَكِّلُ الملاذ الأخير (مدينة الوفاة). كانوا يتنقَّلون بحرية بين مدينة وأخرىٰ حاملين أفكارهم وكتبهم (مخطوطاتهم) وحواراتهم. وبقيت هذه المدن متجاوبة مع مفكريها وعلمائها وأدبائها ومخطوطاتها قرونًا مديدة، حتىٰ دنا القرنُ العشرون وجاءت دولُه، وعُزِلَتْ مدنُ المخطوطات عن بعضها، وأُحدثت تلك الشروخ العميقة والتناقضات والإضعاف الذي كان من نتائجه غموضٌ اكتنف وضع التراث المخطوط في كل من هذه المدن، علمًا بأنها ما زالتْ تكابد في الاحتفاظ به حتىٰ الآن وقد دنت منها كلُّ أسباب التعب والدمار.

بدأت إذن الحروب التي نالت من التراث المخطوط نيلًا أكيدًا مع الحملة الصليبية الأولىٰ في نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ويبدو أنها لن تنتهي مع الاحتلال الأميركي للعراق في بداية القرن الخامس عشر الهجري / الحادي والعشرين الميلادي. إن ألف عام نالت نيلًا شديدًا من التراث المخطوط، ومثلما كانت الآثار التاريخية جسيمةً علىٰ هذا التراث، فإنَّ الآثار الحالية كانت أشد وقعًا ومفاجأةً، غير أن الأثر المشترك والمستمرَّ بين الحملتين الصليبية والأميركية كان السرقة وتشريد المخطوطات إلىٰ المدن التي قَدِمَتْ منها الحملتان، وتجمَّدت هناك في المتاحف الفاخرة، وسرعان ما تحول جزءٌ منها إلىٰ (موضوع ما) فوق مكاتب الاستشراق. وأضحتْ عواصمُ المخطوطات العربية مُعَطَّلَة عن دورَيْها الرئيسين: تخزينِ المخطوطات التخزين الأمين، ودراستها في مراكزَ بحثية متقدمة.

استمرت سرقة المخطوطات وتشريدها، فقد ازداد اهتمام الأوروبيين بالتراث العربي المخطوط بعد وجودهم الطويل في بلاد الشام في أثناء الحروب الصليبية، وبدأوا في عمليات الاستحواذ عليه بأساليب وطرق متعددة، وقد ارتبط هذا الأمر بالقرارات العليا في دولهم «فإن لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م) نقل معه من دمياط مخطوطاتٍ عربية وقبطية، واحتذىٰ حذوه كثيرون من أمراء الفرنسيس وأغنياء حُجّاجهم الذين رافقوا الملك في زيارته الأماكن المقدسة»[1]، في حين وقع عددٌ آخر من خزائن المخطوطات العربية في أتونات حروب جديدة، وقامت المدفعيات هذه المرة بقصف المخطوطات مباشرةً!

حدث ذلك مراتٍ عديدة. والهدف المقصود كان المخطوطات! فالعقدة الحضارية التي واجه بها المغول المخطوطات البغدادية، هي العقدة نفسها التي دعَتْ الجيشَ الصربي إلىٰ قصف خزائن المخطوطات العربية في البوسنة والهرسك. هذا ما حدث لمخطوطات مركز الاستشراق ومخطوطات المكتبة الوطنية في سراييفو، إذ قامت المدفعية الصربية بتوجيه نيرانها مباشرة إلىٰ مخطوطات هذين الموقعين! وهكذا يكون للحرب هنا قصدٌ مباشرٌ في استهداف التراث المخطوط تمهيدًا لاجتثاث البنية الثقافية المجتمعية الحاملة له، في حرب حملت (طابع) الطائفية والدينية، غير أنَّ العقدة التي دمَّرت المخطوطات هذه المرة كانت أشد تركيبًا، لنقل إنها عقدة حضارية دفعت إلىٰ قصف بغداد والمتحف العراقي وخزائن مخطوطاته وخزائن أخرىٰ في المدينة. كما نال الدمار المستمرُ من حلب القديمة إثر تحولها إلىٰ ساحة معارك مستمرة وتعرُّضها للقصف المتنوع، فدُمِّرَتْ الأمكنة القديمة الحاضنة للمخطوطات من مدارس وزوايا ومساجد،

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١٣٤، ١٩٧، ١٩٨.

ودُمِّر الجامع الأموي العتيد والمكتبة الوقفية الجديدة التي أنشئت بقربه وجُهزت؛ كي تعود إليها المخطوطات، ويبدأ منها بحثٌ تراثي جديدٌ عميق الأصـالة.

إثر كل حرب تتصاعد النتائج، وما يعنينا منها هنا هو الآثار السلبية التي طالت التراث المخطـوط. المستوىٰ المـادي من هذا الأثر هو ضياع الثروة المخطوطية بأشكالٍ سجَّلها التاريخ مثلما يسجلها الواقعُ حاليًا. وأشهر هذه الأشكال الحرق الذي يحوِّل الورق وما فيه إلىٰ رماد، وأكثرها فرادةً وغرابة كان إغراق المخطوطات البغدادية في نهر دجلة، حينها كانت بغداد أكبر عاصمة للمخطوطات في العالم، غير أنَّ أشد هذه الآثار كان تهجير المخطوطات إلىٰ مواقع أخرىٰ لا صلة لها بها !

الحرب علىٰ جبهة المخطوطات .. حرق وإغراق

ثَمَّ فاصلٌ زمني شبه واضح بين اكتمال النضج الحضاري واختماره والحالة العسكرية، فالبداية العسكرية القوية تكون في مرحلة التأسيس، وفي المراحل التالية يتراجع ضجيج المعارك لصالح الأبنية الفكرية والعلمية، وينخفض عدد الجنود لصالح جيوش جديدة ستنبثقُ من بينها المجموعاتُ الإبداعيةُ من الشعراء والعلماء والفقهاء وفرق المخترعين والفلاسفة.. والمتمردين أيضًا.

حقًّا إنه مع حلول القرن السابع الهجري كانت البنيةُ العسكرية للدولة العباسية في أدنىٰ مستوياتها، غير أنَّ المكتبات البغدادية كانت قد جمَّتْ بمخطوطاتها التي تمثل مجمل المنتج المعرفي في كل أنحاء المناطق التي انتشر فيها الإسلام واندامحت فيها الثقافةُ العربية، حتىٰ إننا نستطيع القول إن الدولة العباسية تحوَّلَتْ قبيل سقوطها إلىٰ دولة - مكتبة. فغدَتْ المكتبةُ

تُمثلها أكثر من أي شيء آخر. ويمكن أن نلاحظ أمرًا في غاية الفرادة، هو أنَّ العمل الوحيد الذي قام به الخليفةُ العباسي الأخير المستعصم بالله وخيولُ المغول تقترب حثيثًا من بغداد، هو إنشاء عدة خزائن ضخمة للكتب (المخطوطات) !

وأمَّا العقوبة الأولىٰ التي أنزلها المغول بالدولة العباسية حين اجتاحوا بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) فكانت إعدامَ مخطوطاتها غرقًا في نهر دجلة. لقد استشعروا أنَّ في هذا التراث تكمن «شيفرة» الإبداع وسرُّ هذه الحضارة، فقرَّروا تدميرها في لحظة انتصارهم. قتلوا الخليفة، وقتلوا جيشًا من المبدعين والكُتَّاب والفنانين، كانت المكتباتُ مهيبةً بمخطوطاتها فبدتْ لهم وكأنَّها تفضحُ فراغَهم وهي ترمقهم بثِقَلها المهول. كانت تلك عقدةُ العسكري الأجوف (المنتصر) أمام مدينة حُبلىٰ بالحضارة.

إنَّ الصدمة المغولية بالثقافة العربية التي ظهرت بشكلها المباشر خلال اجتياح بغداد، كان من نتائجها أنْ لا بُدَّ من قتل المخطوطات !

لم تكن هذه الحادثةُ هي حادثة الإعدام الوحيدة الواسعة التي تعرضت لها المخطوطات العربية أمام مُنتصرٍ يفتقر إلىٰ بُنية حضارية مُكافئة، فبعد ذلك بنحو القرنين، وفي المنتهىٰ الغربي الشمالي للمنطقة التي امتدت إليها الثقافةُ العربية، في المدينتين الأثيرتين: قرطبة وغرناطة، جرىٰ حرق مليون مخطوطة أندلسية بأمر من فرديناند وإيزابيلا، وشهد الملكان بأعينهما إعدامَ جيش المخطوطات الهائل الذي بدا لدُويلتهم وكأنه جيشٌ إزاء جيشهم، فتعاملوا معه بطريقة عسكرية تمامًا ! وقد سبق هذا الحدث الرهيب مراسيمُ إنشاء محاكم التفتيش في إيطاليا وفرنسا وألمانيا وكذا في إسبانيا التي بقيت مهمتها قرونًا هي محوُ كل ما تركته الثقافة العربية من سِمات وملامحَ من خلال تدمير المخطوطات العربية وملاحقة مَن يحتفظ

بها[١]. وبُعَيْد سقوط غرناطة استمرتْ الحربُ علىٰ جبهة المخطوطات؛ إذ صدر في ١٥٠١/١٠/١٢م مرسومٌ بإحراق جميع الكتب العربية، فأُحرقت آلاف الكتب في ساحة الرملة بغرناطة، ثم تتابع حرق الكتب في جميع مدن وقرىٰ مملكة غرناطة[٢]. وقد بلغتْ في غرناطة وحدها أكثر من (٨٠.٠٠٠) وهو رقمٌ اعترف به مؤرخو الغرب[٣]. وسبق هاتين الحادثتين معًا ما فعلته أوائلُ الحملات الصليبية بمكتبات بلاد الشام في طرابلس الشام والقدس حين أحرقوا مئات الألوف من مخطوطاتها.

شكّلتْ هذه المخطوطات موضوعًا لحرب طويلة الأمد بين الشرق العربي والغرب، ولا نُجافي الحقيقة إذا قلنا إنَّ العلاقة العويصة القائمة إلىٰ اليوم بين هذين النقيضين الأرضيَّين هي نتاج ذهنيتين تشكلتا علىٰ طرفي هذه الجبهة؛ جبهة المخطوطات !

المكتبات العظمىٰ انتهت - إذن - حرقًا علىٰ يد عسكريين حملوا عقدةَ نقص هائلة تجاهها وتجاه منتجيها وصانعيها، فالخزائن المخطوطية العظيمة التي أنشأها الخلفاء الأمويون في قرطبة انتهت حرقًا، وهي التي قام بتأسيسها خليفتان، أما الأول فهو عبد الرحمن الثالث[٤] الملقب بالناصر الذي قام بتأسيس مكتبة فخمة في قرطبة، واهتمَّ بالعلوم والآداب، وقصده العلماء من كل مكان، كما أسس مكتبة كبرىٰ في قصره وخزَّن بها الكتب من جميع اللغات. أما الثاني فهو الحكم الثاني المستنصر بالله[٥] الذي أنشأ

---

(١) الصحوة الإسلامية في الأندلس اليوم، ص٤٠-٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٣) الاستشراق بين الموضوعية والافتعال، ص٣٦ وص١٥٢.

(٤) أول مَن تلقَّب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس ٢٧٧-٣٥٠هـ/٨٩٠-٩٦١م.

(٥) ثاني مَن تلقَّب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس ٣٠٢-٣٦٦هـ/٩١٤-٩٧٦م.

مكتبة عامرة في قرطبة وجمع في قصره نوادر الكتب، واجتمعت له من خزائن الكتب ما لم يجتمع لأحد من قبله ولا من بعده. ومما ذكره ابن خلدون عن هذه الخزانة «عدد فهارسها كان ٤٤ فهرسًا في كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير»[1]. وكان مصير هذه الخزائن فاجعًا، فقد أُحرق جزء منها بعد وفاته في الميدان العام في قرطبة، وبيع جزء، ونُهب ما تبقىٰ منها علىٰ يد البربر عندما دخلوا قرطبة عنوة.

وهكذا صار بإمكاننا ربط هذا الحدث التاريخي الذي تعرَّضت له المخطوطات العربية؛ حدثِ إحراقها بالمحتوىٰ النفسي للمنتصر. إنَّ استقراء حوادث إحراق[2] المخطوطات العربية إثر الحروب تؤكد أنَّ الانتصار العسكري للمغول والصليبيين وغيرهم لم يكن كافيًا من وجهة نظرهم، فقد كانت (كتيبةُ المخطوطات) جاثمةً بانتظارهم - كما بدا لهم - فكان لا بُدَّ من مواجهتها وتحقيق نصر نظيف وكامل بإحراقها وتحويلها إلىٰ رماد !

الإرهاب الفكري .. حرب من نوع آخر

لم تكن الحروب التقليدية هي السبب الوحيد في ضياع المخطوطات وإعدامها حَرْقًا أو غَرَقًا، فهناك ما هو أدهىٰ في بعض الأحيان من الحروب ومن صدمتها المباشرة الواضحة، ذلك هو الاستبداد الذي ينتج عنه ما يمكن أن نسمِّيَه بالإرهاب الفكري بنتائجه النفسية الجَمْعية طويلة الأمد، وبما يمكن أن يُشكِّله من أنماط ذهنية متكلِّسة. ولئن كان موضوع الإرهاب الفكري موضوعًا شديد الأهمية والتفاصيل، ليس في تاريخنا

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/١٤٦.

(٢) ذكر ابن كثير حوادث إحراق وضياع كتب وخزائن عديدة، لم تكن كلها من أثر الحروب. انظر: البداية والنهاية. مثلًا ١٣/٤٥، ٧٢، وكذلك المقريزي عند ذكره خزائن الكتب بالقاهرة في المواعظ والاعتبار ٢/٢١٢.

فحسب، بل في واقعنا الحالي، فإن ما نشير إليه هنا هو ما أصاب الكيانَ المادي للتراث المخطوط فقط.

كان من نتائج الإرهاب الفكري قديمًا وحديثًا، أن اضطر مالكو المخطوطات إلىٰ دفنها في التراب، أو حرقها سرًّا؛ لأنها تُخالف فكريًّا السلطة. حدث ذلك علىٰ مستوىٰ الأفراد وعلىٰ المستوىٰ الاجتماعي التاريخي العريض، ويستمرُّ في الحدوث حتىٰ هذا العصر نتيجة وقوع صراعات من أنواع مختلفة، فعلىٰ المستوىٰ الفردي أُحرِقَتْ مخطوطات العلماء والمفكرين والفلاسفة، وكان من أشهرها تاريخيًّا، إحراق مخطوطات ابن حزم[١] وابن رشد[٢]، وكانا من أعلام الفكر الإبداعي، فقد أثارا في مؤلفاتهما قضايا إشكالية، فلابن حزم بحثُه غير المسبوق في مقارنة الأديان «الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل»، وله الكتاب الجمالي الفريد في الحب، المشهور «طوق الحمامة». قام المعتضد بن عباد (ت٤٦١هـ/١٠٦٨م) بإحراق كتبه[٣]، فقال ابن حزم في ذلك:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمَّنه القرطاسُ بل هو في صدري

ولابن رشد محاولاته الجريئة للتوفيق بين الشريعة والفلسفة، وردُّه علىٰ الغزَّالي في «تهافت التهافت».

لقد جرىٰ إحراق مخطوطات المبدعين الإشكاليين مراتٍ عديدة، وهذا الأثر يمكن عدُّه أثرًا داخليًّا وليس خارجيًّا، وهذه العُقدة الاستبدادية

---

(١) علي بن أحمد (٣٨٤-٤٥٦هـ/٩٩٤-١٠٦٣م) فقيه وشاعر وفيلسوف ومؤرخ أندلسي. ولد في قرطبة.

(٢) أبو الوليد محمد بن أحمد (٥٢٠-٥٩٥هـ/١١٢٦-١١٩٨م) فيلسوف ولد في قرطبة. سماه الغرب «الشارح» لشروحه الكثيرة والممتازة لأرسطو.

(٣) طوق الحمامة، ص٣٢٣-٣٢٤.

ليست عقدةً خاصة بالشرق وحده أو بالعرب وحدهم، بل هي لوثة ذات طابع عالمي وامتداد تاريخي، تنتاب لحظاتٍ من التاريخ يكون الاستبداد فيها مستحكمًا ومستبقيًا على الحالات الراكدة في كل أبعاد الحياة من الفكر إلى العلم.

وحتى لا نحيد عن موضوعنا وهو التراث العربي المخطوط فإن النيل من فكر إبداعيٍّ ما، كثيرًا ما كان بحرق مؤلفات المفكر أو العالم (أي مخطوطاته). وهكذا يخلدُ بالُ السلطة القائمة إلى راحة أكيدة، وإلى أنَّ هذا الفكر قد تحوَّل بكل بساطة إلى رماد تذروه الرياح ! في المسار الحضاري العربي لم يكن هناك دومًا توافق وتناغم بين المسار السياسي والتفاعل الفكري.

وأمَّا في اللحظات الراهنة فقد بلغتْ الغربةُ بين المسارات «الساخنة» التي من المفترض أنها حاملةُ مشروع التغيير القادم والفكر بشكل عام حدًّا مَرَضِيًّا عَزَلَ التراث المخطوط بأمكنته الأثيرة داخل المدن القديمة في عواصم التراث المخطوط التقليدية في الشرق العربي، وزادها غربةً وغموضًا، وبالتأكيد ثمة دمار هائل أصاب كل شيء، وما زال مستمرًّا.

وحديثًا يكاد يكون التخلص من الكتب (أو المخطوطات) خوفًا من الاستبداد أمرًا لا يمكن إحصاؤه لكثرة حدوثه. وعلى المستوى الحضاري العربي، واجهَتْ الحضارةُ العربية إرهابًا فكريًّا إثر سقوط غرناطة، فقد خشي مسلمو الأندلس من وقوع المخطوطات العربية بأيدي مخابرات محاكم التفتيش، وقد تكررت مأساة دفن المخطوطات والكتب في القرن العشرين في أكثر من دولة عربية وجدتْ أحيانًا في هذه المخطوطات (أو الكتب) عدوًّا لها !

من الآثار الأخرىٰ للإرهاب الفكري غيرِ دفن المخطوطات: إحراقُها، ونقل المخطوطات من مكان غيرِ آمن إلىٰ مكان آمن أو تهجيرُها مع من يُهاجر من مالكيها، ومن الحوادث التي تُسَجِّلُ تأكيدًا لهذا الأثر ما حدث خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حين انتقلت مجموعاتٌ من المخطوطات من الجزائر إلىٰ دمشق[1]، وبعد ذلك بزمن انتقلت مجموعات أخرىٰ من دمشق إلىٰ مصر، وفي كل مرة يتشكل الإرهابُ الفكري فيها في أشكال مختلفة، غير أنه كان يحمل دومًا خنجره الطاعن للفكرة التي يظنُّها عدوًّا له. فهاهو الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي المولد الجزائري الأصل (ولد ١٨٥٢م، وتوفي ١٩٢٠م)[2] مؤسس المكتبة الظاهرية الدمشقية وفدائي المخطوطات ما لبث أن رحل من دمشق إلىٰ مصر هربًا من بطش السلطة العثمانية في أواخر أيامها في المنطقة العربية حاملًا معه ما استطاع من كتب قيمة ومخطوطات نادرة. ونلمس هنا أثرًا جديدًا - قديمًا لحرب غير تقليدية، هي الحرب التي تقاتل الفكر وأوعيته قتالًا مباشرًا، وإنْ لم يكن بالنار والحديد، إنه الاستبداد الذي حفَّزَ رجلًا شديد الوعي لأَنْ يحمل معه مخطوطات نادرة إلىٰ المكان الذي احتمىٰ ولجأ إليه، مثلما حمل والدُهُ حين هاجر من الجزائر إلىٰ دمشق تلك المخطوطات المغربية التي حُفظت في ما بعد في المكتبة الظاهرية بدمشق.

ولكن هل مخطوطات الشيخ طاهر الجزائري التي هاجرت معه إلىٰ مصر، عادت معه حين رجع إلىٰ دمشق بعد قيام الدولة العربية عام ١٩١٩ ؟ طبعًا هذا التساؤل تنضم إليه أسئلةٌ كثيرة شبيهة بل مطابقة عن حوادث انتقال المخطوطات في مدن المنطقة العربية.

---

(١) التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي، رشيد الزوادي، مجلة الحضارة الإسلامية، وهران، الجزائر، ١٩٩٣، ص٣٢٧-٣٣٩.

(٢) سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في فصل (التراث المخطوط في سورية).

جدول (٢)

مخطوطات مغربية في خزانة الظاهرية
(انتقال المخطوطات)

عنوان المخطوط	مؤلِّفه
رسالة في علم الرمل	أبو زيد عبد الرحمن بن أبي غالب بن عبد الرحمن الجادري المديوني الموقت في مسجد القرويين بفاس
نبذة من كلام الفلاسفة	محي الدين بن أبي شكر المغربي
حواش على رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق	أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب
جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس	محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي
رسالة في مداواة النفوس	ابن حزم الأندلسي
سكردان السلطان	أحمد بن يحيىٰ التلمساني
أزهار الرياض في أخبار عياض	أحمد بن محمد التلمساني المقري
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب	الثعالبي
كتاب في تعبير الرؤيا	محي الدين أبو العباس أحمد بن علي القرشي المغربي المعروف بالبوني
تمرين الناقلَين في أحوال النيرين	إبراهيم بن محمد بن محمد المغربي الأندلسي
خبايا الزوايا في ما في الرجال من البقايا	أحمد الخفاجي
غريب القرآن	محمد بن أحمد الأندلسي الصُّمادحي
ارتشاف الضَّرَب في لسان العرب	محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي
المنتقىٰ لأهل التُّقىٰ	أحمد بن ميرها القرطبي
لجاجة الزهر وفريدة الدهر	عبد المجيد بن عبدون الأندلسي

الحروب الأخيرة .. سرقة التراث لسرقة التاريخ والحاضر

منذ تبلور الصراع القائم بين الشرق والغرب، وبالتحديد بين الحضارة العربية والحضارة الغربية، وقع التراث العربي المخطوط في فِخاخ اللصوص، فما زالت المخطوطاتُ العربية منذ نَضَجَ الوعيُ الغربي بأهميتها القصوىٰ تتعرض للسرقة، وبدأ ذلك بوضوح مع أوائل الحملات الصليبية، واستمرَّ بكثافة إلىٰ بدايات عصر النهضة الأوروبية، وتفاقم إلىٰ درجة كبيرة في العقود الأخيرة عندما تضافرت واتحدت كُلُّ الشروط المعينة علىٰ عمليات السطو علىٰ المخطوطات.

يُضاف إلىٰ ذلك أن البُنىٰ القانونية المتعلقة بالآثار (أو المخطوطات) في الدول العربية مُخْتَرَقة، والحراك بين عواصم الاستشراق والمراكز التراثية بما فيها خزائن المخطوطات قائمةٌ علىٰ قدَم وساق في عُظْم المنطقة العربية، أما القوانين الأممية التي تحمي التراث الوطني للشعوب فما عاد لها جدوىٰ بعد أن تهاوت الكِفَّة الوطنية إلىٰ درجة لا تُصدَّق، ورجحت الكِفَّة الغربية الاستشراقية بمؤسساتها الأممية الغربية الصنع والإنشاء!

ونبدأ بحلب مالكة أكبر ذخيرة مخطوطية في أقصىٰ شمال المنطقة العربية، فقد تعرَّضت لسرقات مبكرة ومنظَّمة نتيجة الوجود القنصلي الأوروبي المبكر فيها[1]. أما أكبر السرقات فكانت تلك التي حدثت في العراق قبيل الاحتلال الأميركي وبعده، فالمخطوطات العراقية كانت أكثر عرضة للضياع عن طريق السرقة المنظمة من قِبَل الأفراد والتجار وعصاباتهم وخبراء القوات

---

(١) بدأ القناصل الأوربيون يردون حلب ويقيمون فيها إثر اتفاقية الامتيازات عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م، فأنشئت قنصلية البندقية عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م، والفرنسية عام ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، والإنجليزية عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م، والهولندية عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م.

الغازِيَة. ومن أشهر السرقاتِ تلك التي تعرَّضت لها خزائن المدن اللبنانية، وذلك إثر دخول لبنان في حروبه الداخلية والخارجية طويلة الأمد.

تعدُّ السرقة بوصفها أثرًا من آثار الحروب أسلوبًا أثيرًا جدًّا في السنوات القليلة الماضية سواء قبل الحروب أو بعدها. وقد كانت له تأثيراته العميقة على المخطوطات العربية في العراق وفلسطين وسورية إثر الحروب التي تعرَّضت لها، وكان أقدمها الحرب التي انتهت بنكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، ثم نكستها ونكسة جيرانها عام ١٩٦٧م، فالاحتلال الأميركي للعراق عام ٢٠٠٢م، فالحرب القائمة في سورية منذ آذار / مارس ٢٠١١م وما زالت مستمرة حتى الآن.

إنها (السرقة) محصلة جهود كثيفة من تجار المخطوطات المحليين والدوليين وعصاباتهم وخبراء القوات الغازية ونفوذها العسكري، مع غطاء من الفساد الأمني القانوني المتغاضي عن ذلك ! ولا شك أنها بوصفها أثرًا من آثار الحروب المستشرِية والمزمنة قديمًا وحديثًا قد تسبَّبت في تهريب المخطوطات العربية وتهجيرها غربًا بشكل خاص. إن مئات الآلاف من المخطوطات هُجِّرَتْ إلى مكتبات حملت أسماءً أصبحت مشهورة بأنها مراكز للمخطوطات العربية في بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة، وهي التي صدَّرَتْ لاحقًا أفواج المستشرقين[١].

وتعرَّضت خزائن أخرى للتراث العربي المخطوط للسرقة بسبب ظروف الحرب التي ألمَّتْ بها، وتحولتْ مناطقُ جديدة من أمكنة هذه المخطوطات إلى مناطق ساخنة دائمة الاضطراب، مما رمى بها في ظروف فوضوية تتعطل فيها القوانين وتنكسر إرادة المجتمع، وتغدو هُوية هذا المجتمع أمرًا خارج

(١) الحديث هنا عن (الاستشراق) بوصفه ظاهرة غربية كبيرة شكلت تيارًا داخل هذه الظاهرة. طبعًا ثمة مستشرقون تحلَّوا بالأمانة والموضوعية.

لائحة الأهميات. لقد قفزت إلى دائرة الأماكن الساخنة دائمة الحروب والتوتر مناطقُ كان فيها مخزونٌ من التراث العربي المخطوط، وبسبب ذلك تعرَّضت للسرقات المستمرة، ذلك ما حدث في الصومال، وصربيا وكرواتيا، والبوسنة والهرسك التي سبق أن تعرَّض تراثها المخزون لعمليات سرقة مُبكرة في أثناء الحرب العالمية الأولى من قبل الجنود النمساويين، ومصداق ذلك ما تحتفظ به مكتبات فيينا من نفائس المخطوطات العربية. كما كان من البدهي أن تتعرض المخطوطات في أفغانستان للسرقة. وأما نصيب المخطوطات العراقية من هذه السرقات فكان كبيرًا ومؤلمًا نظرًا لما تتمتع به مجموعاته من عمق تاريخي نوعي وقِدَم ونُدرة ونفاسة، لِكون العراق من أوائل المراكز العلمية والثقافية في الحضارة الإسلامية.

وحين تعجز السرقة عن اختراق جدران الخزائن وخَدْش أمانة الخازنين، يتَّجه التجار والمتربصون إلى المناورة والإغراء، فقد كانت هناك محاولات من قبل دول عديدة لاستغلال أزمة معهد الاستشراق المالية في سراييفو، وكان أول المستغلين إسرائيل التي عرضتْ ألفي مليون دولار لشراء النسخة الوحيدة التي بقيت من «الهاجادا»، وهو كتاب نادر يضم قصصًا تاريخيةً ودينية يهودية مكتوبة باللغة العبرية، وبقيت هذه المخطوطة ضمن المخطوطات التي نجت من القصف الصربي الذي طال مكتبة معهد الاستشراق في أثناء الحرب، علمًا بأن هذا الكتاب طُبع بالتصوير الرقمي طبق الأصل، ومعه دراسة مستفيضة باللغة الإنكليزية، وعلى الرغم من ذلك لم يترددوا في عرض هذا المبلغ الخيالي.

لقد دأبت إسرائيل على مطاردة التاريخ لأنها تريد أن تسرق منه أيَّ شيء يثبت تاريخيتها، وفي سبيل ذلك قامت بملاحقة التراث العربي المخطوط بدأب علَّها تجد ما يسدُّ حاجتها من مثل الوقوف على إحصاءات تتعلَّق باليهود في المدن العربية. وعليه فلا نستغرب إذا عرفنا أن المخطوطات العراقية

قد وقعت في أيدي الصهاينة أو في حوزة جمعياتهم في الولايات المتحدة وأوروبا في أثناء الاجتياح الأميركي وبعده مع ما يكتنف ذلك من الغموض.

ومن خلال ما سبق يتضح أن السرقة والنهب وشراء الذمم (في أثناء الحروب أو قبلها أو بعدها) تسبَّبت في رسم خريطة جديدة للتراث العربي المخطوط في خزائن العالم، ذلك أن المتصفح لتاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني كارل بروكلمان الراصد للمخطوطات العربية وأماكن وجودها في العالم، سيجد الأمكنة الجديدة للمخطوطات العربية هي: الإسكوريال، أوبسالا، باريس، برسلاو، برلين، بطرسبرج، بودليانا، برنستون، ستوكهولم، فلورنسة، الفاتيكان، المتحف البريطاني، لايبزغ، مانشستر، فرانكفورت.

الصادَّات التي امتصَّت خطر اندثار المخطوطات

إنَّ الحرب بلحظاتها العصيبة الصِّفْرية تخلق ذلك الحذر النفسي الجمعي والتحفيز الذي يُعلي كثيرًا من عتبة الشعور بالخطر، ليس الخطر المادي فحسب، وإنما الخطر الذي يمسُّ الهُويةَ ومكوناتها، هذا الحذر والتحفيز هما اللذان أوصلا إلينا تلك المخطوطات النادرة والعتيقة.

وذلك أثرٌ نفسي قائم حتى اليوم، فعلى سبيل المثال هناك عددٌ من سكان المدينة القديمة في حلب ممن كان بحوزتهم مخطوطات قاموا بنقلها وإيداعها في أماكن آمنة إثر الحرب التي دخلت بها المدينة في الآونة الأخيرة. ويمكن أن نلاحظ أن التاريخ يقوم عادة على هذا الفعل الإبداعي الاستثنائي الذي ينبثق ويتفاعل في لحظات الخطر، وربما بعد ذلك تنجو أكثر المخطوطات أهمية !

إن الحضارة العربية في الحقيقة بقاعدتها العربية وفضاءاتها الإسلامية المترامية امتلكت في بنيتها وعاءً ثقافيًا نابضًا ومتجددًا، فقد رافق هذا النّتاج الكتابي الغزير وعيٌ توثيقي قام بتسجيلها، فشكّلَتْ الفهرسةُ[١] شبه المستمرة نوعًا من الصادّات التي خفّفت من الآثار التي خلّفتها الحروب على المخطوطات، ومكّنتْ إلى حدٍّ ما من البحث عنها لاحقًا.

وحين نضجت البُنىٰ الحضارية العربية إلىٰ الحدّ الذي بدأتْ فيه تتماهىٰ الأبعاد الفكرية مع البُنىٰ الاجتماعية، لم تعد الكتب حينذاك - التي أضحتْ بالنسبة إلينا لاحقًا «مخطوطات» - مقصورةً علىٰ زوايا خاصة، بل أصبحت موجودة في كل (مرافق المجتمع)، في كل مسجد وزاوية ومدرسة[٢] كما في المشافي، والدواوين، والبيوت، والقصور.

لقد بلغت البنية المجتمعية الثقافية في الدولة العباسية حدًّا من النضج، وذلك منذ بدء تبلور هذه البنية في القرن الثالث الهجري، فكانت المدرسة النّظامية في بغداد التي أسسها نظام الملك[٣]واحتوت علىٰ ستة آلاف مجلد، والمدرسة المستنصرية التي ما زال بناؤها الشامخ قائمًا حتىٰ

---

(١) فهرست النديم، وفهرس ابن خير، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده، وكشف الظنون لحاجّي خليفة، وهدية العارفين لإسماعيل البغدادي، وغيرها مما أحصىٰ ووثّق المكتبة العربية الإسلامية، وقد استمرت مشروعات توثيق التراث حتىٰ عصر النهضة العربية الحديثة في الشام.

(٢) المدرسة: أحد التكوينات الثقافية التي أفرزتها الحضارة العربية الإسلامية وإحدىٰ مؤسساتها التي كانت تقوم بالوظيفة التعليمية بالمعنىٰ الأكاديمي خاصة في الأزمان المبكرة خلال قرون الذروة الحضارية.

(٣) نظام الملك (٤٠٩-٤٨٥هـ/١٠١٨-١٠٩٢م) والي خراسان، ثم وزير ألب أرسلان السلجوقي الذي عهد إليه بالوصاية علىٰ ملكشاه ثم تفرّد بالحكم. أنشأ المدرسة النظامية في كل من بغداد ونيسابور.

اليوم، لديها نماذج كثيرة من العناوين. وظهرت خزائن المخطوطات في كل مدن العراق، ناهيك عن العاصمة بغداد، فتكونت ونمتْ المكتبات الشهيرة والمكتبات الخاصة.

أمَّا المرحلة الأيوبية (٥٧٩-٦٦٨هـ / ١١٩٣-١٢٥٠م) فقد حملتْ إلىٰ خزائن التراث المخطوط الشامية بما يمكن أن نصفه بإعادة التوازن بُعيد ما حدث في كل من القدس إبَّان الغزو الصليبي، وبغداد عقب الاجتياح المغولي، ذلك أن مهمة إعادة بناء التراث المخطوط كانت إحدىٰ المهمات الكبرىٰ التي اضطلعت بها مؤسساتُ الدولة الأيوبية، مما يؤكد أنَّ هذه الحقبة كانت زمنًا صعد إلىٰ حَدٍّ كبير فوق ما يمكن أن نسميه بـ «الأفقية التاريخية» لنكون أمام ذروة مهمة ذات بعد عالمي. لم يكن الفعلُ العسكري العميق فعلًا وحيدًا نما وتطور في بنية الدولة الأيوبية، بل تكاملتْ مُرَكَّباتُها المجتمعية استنادًا إلىٰ خطط مُواكبة نفَّذتها بجدية وبكثافة حتىٰ نهضت علىٰ قاعدة ثقافية علمية كانت صانعة ومؤثرة في الواقع السياسي للدولة. ولمَّا كانت خطة توحيد المنطقة هي الطريق إلىٰ مشروع تحرير القدس، كان إنشاء المدارس والعناية بطواقمها التدريسية أمرًا أخذته الإستراتيجية الأيوبية بكامل الجدية والاهتمام، وصارت خزائن المخطوطات من المرافق الضرورية الملازمة لهذه المؤسسات العلمية زمنًا بعد زمن، ومنها ما استمرَّ بخزائنه حتىٰ عهد قريب جدًّا.

لقد بقي عدد من هذه المدارس قائمًا بوظيفته التعليمية بتدريس الفقه والحديث والقرآن، وكذا اللغة العربية بنحوها وصرفها وبلاغتها حتىٰ الربع الأول من القرن العشرين. وتمثَّلت مراكز هذه الوظيفة التعليمية في المساجد أولًا، ثم في المدارس التي تخصصت بهذا الأداء منذ العهود الزنكية. إن هذا التكوين التعليمي الأصيل وُجد في معظم المدن

العربية الإسلامية مثل دمشق وحلب وبغداد والقدس والقاهرة، وعُرفت به المدارسُ الدمشقية الشهيرة من مثل المدرسة الظاهرية والمدرسة العادلية الصغرىٰ والعادلية الكبرىٰ والمدرسة النورية، وكذا المدارس البغدادية، وكان من أبرزها المدرسة المستنصرية. أما حلب فقد كثرت فيها المدارس من مثل المدرسة السلطانية والخسروية والصلاحية والعثمانية، وكانت كل هذه المدارس أو عُظْمها تمتلك خزائن للمخطوطات.

أما المكتبات التي تقام في معظم البيوت القديمة في عواصم المخطوطات في بلاد الشام والعراق فقد كانت تُبنىٰ من حجر البيت السميك علىٰ هيئة جدارٍ طويلٍ كامل كأنه عنصرٍ معماري ثابت تُحلَّىٰ به الكتب (المخطوطات). لقد اكتسب التشكيل المعماري زمنًا بعد زمن قيمًا كثيرة كان منها القيمة العلمية الكامنة بين أوراق المخطوط، حتىٰ غدت المكتبة الحجرية تكوينًا قائمًا في معظم البيوت العربية القديمة.

لازمت خزانةُ الكتب المسجدَ والمدرسة منذ القرون الهجرية الأولىٰ، حتىٰ إن مسجدًا أو مدرسة لم يخل من مكان خاص بالكتب، ففي مدينة مثل حلب يذكر أحد خبراء التراث المخطوط فيها في منتصف القرن الماضي: «لم تكد تخلو مؤسسة علمية في حلب سواء كانت مسجدًا أو مدرسة أو تكية أو تربة من خزانة كتب صغيرة أو كبيرة، تختلف ضخامة وصغرًا باختلاف سعة المؤسسة ضخامة وصغرًا»[1].

إذن، لم تكن المكتبة مُحْتَكَرَة، ولا مُخَبَّأة، بل كانت أمرًا مجتمعيًّا، وربما شَكَّلَ هذا التماهي الكبير بين المجتمع والكتاب مجموعةً أخرىٰ من

---

(١) المخطوطات وخزائنها في حلب، محمد أسعد طلس، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١، ج١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ص٨.

الصَادّات الداخلية التي خفّفتْ من أثر الحروب على هذه المخطوطات، وما زلنا حتى الآن نستطيع أن نجد نُسخًا قديمة جدًّا[1] هربت من اجتياح المغول وحرائقهم. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنَّ نسخًا منها كانت توجد في عدة أمكنة داخل المدينة الواحدة وليس في مكان واحد أو خزانة وحيدة.

إن تناثر المخطوطات في أنحاء المدينة المختلفة خفّف إلى حدٍّ ما من ضياعها المُطلق، كأن المكتبات الخاصة أصبحت رافدًا من روافد حفظ المخطوطات النفيسة والنُّسخ النادرة في أزمنة الحروب والنكسات، فقد ظلت المدن حُبْلى بالكتب (المخطوطات) حتى بعد تراجع الدولة سياسيًّا وعسكريًّا لأزمنة طويلة!

لم تكتف هذه الخزائن الخاصة بحفظ النسخ النادرة من أهم المؤلفات المعروفة والمنتشرة، بل اعتنت أيضًا بجمع الكتب التي كانت ذات رؤى مختلفة، أو ذات فكر جدلي. وغالبًا ما كان أصحاب هذه المكتبات من ذوي البيوتات الكبيرة، والقصور الضخمة، بالإضافة إلى كبار المؤلفين من الأدباء والفلاسفة والعلماء ورجال السياسة من الخلفاء والوزراء والولاة.

في الواقع يصعب جدًّا حصر المكتبات الخاصة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، ولكن يستطيع المرء أن يقول إن شرائح عدة من المسلمين كانت لهم مكتبات خاصة؛ لما علمنا أن المكتبة صارت ركنًا مهمًّا وعنصرًا رئيسًا من عناصر البناء المعماري في البيوت الإسلامية، على الرغم

---

(١) نذكر منها بضع نسخ قديمة نفيسة من القرن السادس والسابع والثامن للهجرة لكتاب «الصحاح في اللغة» للجوهري، محفوظة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد. انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١، ج١، ١٩٥٥، ص٤٣. ومنها أيضًا: نسخة قديمة جدًّا من كتاب «الزينة» لأبي حاتم الرازي (ت٣٢٢هـ)، المرجع السابق ص٤٧.

من أنه قد فُقِدَ عدد كبير منها لأسباب عديدة كالحريق والخلافات السياسية المذهبية والاستبداد الفكري الذي كانت تمارسه السلطة في بعض العهود.

وقد ذكر المؤرخون خزائن خاصة كانت مشهورة جدًّا، منها خزائن كلٍّ من: الواقدي، والجاحظ، والفتح بن خاقان، والكندي، وابن العميد، إلا أنه لا يمكن إحصاء الخزائن الخاصة تاريخيًّا؛ لأنها كانت تشكل نسبةً مهمَّة من عدد السكان. هذا وكان للخلفاء مكتباتُهم الخاصة غيرُ المكتبات العامة التي أنشئت في أزمنتهم وحملت أسماءهم، وكانت هذه الخزائن الخاصة تتضمن مراجع كتب الأسرة عند هؤلاء الخلفاء. ومن هذه الخزائن الخاصة الشهيرة خزانة جمال الدين القفطي[1] في حلب.

وتنضاف إلىٰ هذه المكتبات الخاصة خزائن الكتب المتخصصة في فنٍّ معين، ذلك أن المؤرخين لفتوا انتباهنا إلىٰ خزائنَ بعينها لِما تحتويه من نوعية خاصة من الكتب المتعلقة بالطب والصيدلة وفنونهما.

وبالعودة إلىٰ الحديث عن خزائن الجوامع الكبيرة في العالم الإسلامي، ينبغي الإلماح إلىٰ أنها استفادت من جملة من المكتبات الخاصة التي ضُمَّت إليها وأُوقفت عليها، فقد جرىٰ العُرف بأن العديد من العلماء كانوا يوصون قبيل وفاتهم بوقف مكتباتهم الخاصة علىٰ خزائن الجوامع الكبيرة من مثل جامع المنصور في بغداد، والجامع الأموي في دمشق، والجامع الأموي في حلب، والمسجد الأقصىٰ في القدس. وبذلك اكتسبت خزائن هذه الجوامع ثروة حافلة ونفيسة من المخطوطات التي احتفظت بها مُدَدًا عديدة.

---

(١) القفطي علي بن يوسف جمال الدين (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) نشأ في القاهرة ورحل إلىٰ حلب، وتولىٰ الوزارة عند الملك العزيز. مؤرخ وأديب وله مشاركات في علوم الرياضيات والهندسة. له مكتبة شهيرة. من كتبه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» و«الدر الثمين».

ولم يقتصر وجود المخطوطات في مدن العالم الإسلامي على خزائن الجوامع والمدارس، بل تعدَّاه إلى المستشفيات التي كانت تتضمن مكتبات معلِّمة؛ نظرًا لما كانت تقوم به من دور أكاديمي بحثي وتعليمي، فقد قام عضد الدولة البويهي بإنشاء مكتبة ضخمة في البيمارستان الذي بناه في بغداد، وكذلك صنع نور الدين الشهيد في بيمارستانه في دمشق، وقلاوون في مشفاه في القاهرة.

أما خزائن (التراث المخطوط) في القرون الأخيرة فقد تجمَّدتْ، وما لبث أن تراجع منسوب الحفاظ عليها إلى أدنى مستوى؛ نظرًا للانحطاط العام الذي أصاب المنطقة العربية ومؤسساتها وبُناها الثقافية. وبسبب هذا الواقع فقد استشعرت النهضة العربية في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين خطرًا حاصر التراث المخطوط وهدَّده بالضياع.

إن عودة الغرب إلى الشرق على شكل انتدابات فرنسية وبريطانية إثر انسحاب الدولة العثمانية، عرَّض المخطوطات لصنوف من النهب والسرقة والتهريب لمحتويات الخزائن الخاصة والعامة على حدٍّ سواء من خلال عمليات بيع رخيصة من قِبَل مَنْ وصلتْ إليهم من ورثة خزائن الأجداد، في حملة استشراقية جديدة خفية تهدف إلى الاستحواذ على هذه المخطوطات بشتى السبل، وتجريد المدن العربية الإسلامية من تراثها التليد.

وتنبَّه فريق من علماء عصر النهضة العربية في أواخر القرن ١٣هـ/ ١٩م وأوائل ق ١٤هـ/ ٢٠م إلى هذا الخطر المحدق، فسعوا إلى العمل على تلافيه من خلال جمع المخطوطات من الخزائن الخاصة وإيداعها في مكتبة جامعة حفظًا لها من عمليات البيع والسرقة، وكان من أبرز هؤلاء العلماء

الشيخ طاهر الجزائري[1] مؤسس المكتبة الظاهرية في دمشق - كما سلف الذكر - والمكتبة الخالدية في القدس.

تاريخيًّا، جرىٰ جمع المخطوطات في مكتبة واحدة أو في خزانة واحدة مرتين في القرن الماضي، فكانت المرة الأولىٰ في بدايته، والثانية في آخره. تمثلت الأولىٰ في إنشاء الخزائن الكبرىٰ الجامعة في دمشق (خزانة المكتبة الظاهرية) وحلب (خزانة المكتبة الشرفية) والقدس (خزانة المكتبة الخالدية) وبغداد (خزانة المتحف العراقي). وقد كان ذلك لأسباب مُهمة ومن منطلقات نهضوية وطنية، إلا أن السبب المباشر لهذه (الخزائن الجامعة) كان هو وقوع الخزائن الخاصة والعامة (الوقفية) - في ذلك الوقت - بأيدي الجاهلين الذين أخذوا يتصرفون بالمخطوطات بطريقة ارتجالية وساذجة.

أما المرة الثانية فكانت في نحو ثمانينيات القرن الماضي حين أُنشئت دار (صدام) في بغداد ومكتبة (الأسد) في دمشق، لجمع كل المخطوطات من خزائن الدولتين في هاتين المكتبتين.

تأسيس خزائن التراث الكبرىٰ قبيل الحروب

هذا ما يمكن أن نقرأه في خارطة الإحداثيات (التاريخية - الثقافية) للمنطقة العربية، فثمة خزائن مخطوطات كبرىٰ أُسستْ قبيل حروب كارثية أتت عليها لاحقًا، فآخر الخلفاء العباسيين اهتمُّوا اهتمامًا بالغًا بإنشاء مكتبات عظمىٰ، كأنهم سعوا إلىٰ توكيد وجود حضاري بأسلحة حضارية !

---

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلًا في فصلي (التراث المخطوط في سورية) و(التراث المخطوط في فلسطين).

الخليفة الناصر (الخليفة العباسي الرابع والثلاثون ٥٧٥هـ/١١٨٠م) اعتنىٰ بالمكتبات بشكل عام، كما اهتم بتغذية خزائن الخلافة التي كانت موجودة سابقًا، وزاد عليها واشترىٰ كتبًا كثيرة ونظَّمها أحسن تنظيم.

أما الخليفة المستنصر (الخليفة العباسي السادس والثلاثون - قبل الأخير ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) الذي تولَّىٰ الخلافة بعد الناصر، وورث عنه حبَّ العلم والعلماء واهتمامه بالكتب والمكتبات، فقد سجل اسمه علىٰ أهم خزانة للمخطوطات وأهم مؤسسة علمية هي المدرسة المستنصرية.

أما الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م) فأنشأ دار كتب اشتملت علىٰ عشرة آلاف مجلد، وأقام خزانتين خاصتين في داره.

وفي حلب؛ في أقصىٰ الشمال من بلاد الشام، بقيت هذه المدينة تحت وطأة حروب ساخنة وباردة طويلة علىٰ تُخوم الثغور الشمالية قريبًا من الدولة البيزنطية، حتىٰ كان القرن الرابع الهجري، فحوَّلها الحمدانيون إلىٰ عاصمة لإمارتهم، ولم يكن ممكنًا ذلك إلا ببنية عسكرية قوية وواضحة لمواجهة الحروب المستمرة القادمة من الشمال، فتأسستْ الإمارةُ الحمدانية ولم تدم طويلًا (٢٧٩-٣٨١هـ / ٨٩٢-٩٩١م)، وأما عمر نهضتها فلم يتجاوز ربع القرن (٣٢٠-٣٧٥هـ / ٩٣٢-٩٦٨م) أي مدة حياة سيف الدولة الحمداني، فقد تأسست الحركة الثقافية في حقبته بمكتبة مهمة احتوت علىٰ مؤلفاتِ (مخطوطات) مَنْ كانوا حينذاك، وكانوا من أعظم الأدباء والشعراء والعلماء، ليس في حلب الحمدانية فحسب، بل في أرجاء مناطق الثقافة العربية الإسلامية، وهم حتىٰ هذه اللحظة من أعلام الحضارة العربية المشهورين علىٰ مستوىٰ العالم، نذكر منهم: أبا الطيب المتنبي وأبا فراس الحمداني وابن خالويه والفيلسوف الفارابي ومؤرخ الفن أبا الفرج الأصفهاني، والخالديَّين.

إن جدلية الحرب والمعرفة كانت قائمة في حلب القرن الرابع الهجري علىٰ نحوٍ جليٍّ، فقد كان بناء خزائن المخطوطات أمرًا مواكبًا للحالة الحربية الدائمة، التي يبدو أنها شكَّلَتْ حافزًا لمواجهة حضارية مع الدولة البيزنطية الملاصقة للإمارة الحمدانية، ففي الوقت الذي استطاع فيه سيف الدولة بجيشه الصغير ومملكته المتواضعة أن يحمي الدولة الإسلامية من الخطر الذي كان يتهدَّدها من جانب البيزنطيين، استطاع كذلك أن يحمي الهوية العربية حتىٰ نهايات حدودها الجغرافية، وأن ينسج منها وجودًا شعريًّا وأدبيًّا وعلميًّا[1] مُهِمًّا ومتألقًا، كانت أوراق المخطوطات وعاء حفظها، وجعل بذلك الخزائن الكبرىٰ التي أنشأها في مواجهة نِدِّية وناجحة وقفتْ وجهًا لوجه أمام الدولة البيزنطية، ذلك الخطرُ الذي استفحل في ما بعد، وأصبح يُعرف باسم الحروب الصليبية.

العرب والغرب: فرق التعامل مع تراث الآخر

تحكمنا في لحظتنا الحاضرة مستجداتٌ انبثقت من التطورات المتسارعة التي اجتاحتْ الأرض، ندخل العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين الميلادي / الربع الثاني من القرن الهجري الخامس عشر، لكنْ يمكن أن نُدرك أنَّ نفس اللحظات ليست هي نفس التاريخ ولا هي نفس المستقبل. بل تُعبِّر عن حالات متفاوتة، فالزمنُ الغربي هو المهيمن، وهو الذي أنتج (العالمية) بوصفها مفهومًا وأداءً، وأنتج شيئين جديدين في تاريخ

---

(١) إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها. ومن هؤلاء الشيوخ الخوارزمي، والفارابي، وابن خالويه، والمتنبي، وأبو فراس، وكشاجم، والنامي، والخالديان، والشمشاطي، وعيسىٰ الرقي، وابن نُباتة، وعشرات سواهم، وعلماء مثل المجتبي الأنطاكي، وديونيزوس اليعقوبي. انظر: الثعالبي، «يتيمة الدهر» ١/١٦ بتصرف.

الأرض: المعلوماتية الإلكترونية والإعلام الجديد، وهي بعض الحتميات الجديدة التي تحكمُ لحظتنا وتملؤها بإرادتها وقراراتها !

نكون بذلك أمام «روزنامة» لا تؤدي زمنًا فحسب، بل تَشِفُّ عن فروقات ونسبيات، فنفسُ هذا الزمن لا يعود مهيمنًا ولا منتجًا للحتميات حين يغدو زمنًا عربيًا إسلاميًا (هجريًا) ! يبدو زمنًا راقدًا على حُمولاتٍ تاريخية من الوزن الثقيل، ومنها التراث المخطوط الهائل، ما بقي منه في خزائن المدن العربية، والكثير منه المسروق والمُهَجَّر والقابع في المتاحف البعيدة بانتظار أحفاد العقول التي أنتجته. وهذا التراث المخطوط هو أمرُنا الداخلي الذي لا تنفع معه القطيعة ولا التجاهل ولا التسطيح؛ لأننا بدونه نكون بلا لحظة قادمة تضعنا فوق «الروزنامة» الجديدة للعالم.

حقًّا إن النهضة الحضارية العربية التي بدأت بالانبثاق في القرن الرابع الهجري كانت قد حازتْ واكتنزتْ المخزون التراثي العالمي لكل المناطق المفتوحة إسلاميًّا، وكذلك للمناطق التي بقيت متاخمة لحدود الدولة الإسلامية، وذلك بدءًا من مخزونات متشابكة ومتقاطعة ما بين اليوناني واللاتيني والسرياني، ثم الفارسي والهندي وكثير من جيوب مهمة لثقافات قديمة جدًّا كانت ما تزال قائمة بتراثاتها وكتبها وأطبائها وعلمائها.

وهذا الاستيعاب الحضاري الواسع بقي أمرًا شرعيًّا استوعب الآخر الذي سبقه واضعًا عناوين كتبه وأسماء المؤلفين الحقيقيين، وذلك في عمل كبير إستراتيجي كان بعيدًا عن القرصنة والسرقة.

وبشكل عام ثمة أزمنة يمكن أن نصفها بأنها حسَّاسة؛ لأنها تسبق النهضات الحضارية الكبرى ذات الصفة العالمية (بالمضمون الموضوعي وليس الغربي للعالمية). في هذه الأزمنة الحرجة والمُهِمَّة يغدو الاتكاء على المخزون العلمي الأرضي شرطًا من شروط النهضة القادمة. حدث ذلك في

القرون الأوروبية التي سبقت اللحظة الغربية الحالية، أي الأزمنة التي مهَّدَتْ للنهضة الأوروبية، سنجد اعتمادًا شاسعًا علىٰ المنجز الحضاري العربي وعلىٰ مخزونه من التراث المخطوط، لكنَّه لم يخضع للترجمة فقط، كما حدث قبيل النهضة الإسلامية من ترجمة للتراث اليوناني والفارسي. الفرق هنا أنَّ التراث العربي المخطوط دخل في جهد بحثي غربي هو الاستشراق، ومن خلال الإنتاج الكمي والنوعي من الدراسات والأبحاث التي جرت علىٰ هذا التراث خارج أرضه، أي جزت علىٰ المخطوطات بكل أنواعها، وجرىٰ تحويل نتائجها تجاه أهداف غربية نوعية ! ولم تكن الحالة الإنسانية (البشرية) العربية الواقعية لتعني شيئًا للغرب - بعكس ما حدث قبيل النهضة العربية في القرن الرابع الهجري - وبقي المخزون الحيُّ في نظر النهضة الأوروبية مجرد جغرافية غنية بالخامات، وتواريخ استُخرجت استشراقيًّا لِتنفع للاستعمار ثم للاستثمار، وقد بدا ذلك بوضوح أكبر حين تراجعتْ السلطةُ الدينية في أوروبا وتقدَّمت السلطة الصناعية وبرزت الرأسمالية، في حين يبقىٰ لدينا أكثر من دليل علىٰ أنَّ الإنسان الآخر دخلَ بقوة في النهضة العربية الإسلامية، حتىٰ إن التراث اليوناني وصل إلىٰ الغرب عربيًّا ومشروحًا، وعليه أسماء مؤلِّفِيه الأصليين (أرسطو وأفلاطون وإقليدس) دون قرصنة ولا ازدراء للآخر أو تجاهل له.

وأقدم وثيقة عربية تعكس التعاملَ العربي مع تراثات المناطق المفتوحة هي «فهرست» النديم، الذي يؤرخ للمخطوطات حتىٰ نهايات القرن الرابع الهجري، ويقوم بإحصاء المخطوطات المنقولة والمترجمة من اللغات المختلفة التي كانت ناطقة في ظل الإسلام، فيذكر المترجمين والمؤلفين الأصليين في كثير من الأحيان، وكتبهم التي أنجزوها مع ترجمة لحياتهم، ومن ثم فلا غَرْو أن نجد كثيرًا من الأسماء الفارسية واليونانية والهندية والسريانية مع الأسماء العربية.

من جهة أخرىٰ، ومع بداية عصر النهضة الأوروبية في القرن ١٠هـ/١٦م كان الغرب بكل مكوناته ومؤسساته (البابوات والملوك والحكام والرحالة والمستشرقين والعلماء) قد تجَنَّدَ في حرب حقيقية كان هدفها الحصول علىٰ المخطوطات وتشكيل خزائن ضخمة منها في مدنهم. وقد وصل الأمر إلىٰ ذروته خلال القرن ١٣هـ/١٩م وبداية القرن ١٤هـ/٢٠م فاغتنت مكتبة الفاتيكان في روما بخزائن كاملة من هذا التراث.

وكانت جهود البابوات المنظمة وراء هذا الأمر، وأشهرُهم في هذا المجال البابا سكتوس الرابع (ت١٤٨٤م)، وبيوس الرابع (ت١٥٦٥م)، وبولس الخامس (ت١٦٢١م)، وأوربان الثامن (ت١٦٤٤م). وظهر مختصون بالبحث عن المخطوطات العربية وطرق الحصول عليها وشحنها نحو الغرب. وكان من أشهر بابوات القرن ١٢هـ/١٨م اهتمامًا بالمخطوطات البابا كليمانس الحادي عشر (١١١١-١١٣٣هـ/١٧٠٠-١٧٢١م) الذي أرسل كلًّا من إلياس السمعاني وبعده يوسف شمعون السمعاني لابتياع المخطوطات من مصر وبلاد الشام.

وكان لفرنسا أسبقية في هذا الأمر، خصوصًا في عهد لويس الرابع عشر (١٠٥٣-١١٢٧هـ/١٦٤٣-١٧١٥م) الذي كلَّف دبلوماسييه وسفراءه بالحصول علىٰ المخطوطات وجلبها إلىٰ المكتبة الملكية أيًّا كانت التكاليف. ومما يؤكد نشاطه الاستثنائي في هذا المجال «أنه يوجد في مكتبة دير الشبر بلبنان نسخة من مخطوطة «كتاب وفيات الأعيان» لابن خلكان، علىٰ هامشها حاشية أثبتها أبو النصر الخازن الذي كان قنصلًا لفرنسا في بيروت علىٰ عهده، تقول الحاشية إنه «في سنة ١٦٧١م أرسل عالي الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلىٰ جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات، وزوَّد مبعوثيه بأوامر شريفة إلىٰ جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم

وأموالهم في خدمة هؤلاء المبعوثين، وأن مستشارًا للملك توجَّه إلىٰ قبرص فالشام فمصر فإسلامبول فبغداد، وظفر من كل بلد منها بكثير من المخطوطات»[١].

لكنْ، من الواضح أن ذهنيتين مختلفتين تشكَّلتا علىٰ طرفي جبهة المخطوطات العربية، ومن المحتمل أن تبقىٰ هذه الجبهة حامية وإشكالية، خاصةً أن الظروف الفائقة التي تمرُّ بها المنطقة العربية حاليًا ستقدِّم آليات نقد جديدة ليغدو بها الاستشراق مجرد أمرٍ تاريخي لا أكثر.

❋

لقد اجتمعتْ علىٰ التراث العربي المخطوط آثارٌ حقيقية نتيجة الحروب لتجعل من وجوده المادي وتدفُّقه البحثي قضايا إشكالية مستمرة واكبَتْ إلىٰ حَدٍّ كبير الحالات السياسية والعسكرية التي مرت بها المنطقةُ العربية بعواصم مخطوطاتها. وقد تبين أنْ الحرب التي تركت آثارًا جليَّة علىٰ المُنْجَز الثقافي العميق لأمة صدَّرَتْ ثقافتَها إلىٰ العالم، كشفت في الوقت نفسه الدوافعَ السلبية والنقائص التي كانت خلف تدمير جزء من هذا التراث وضياعه، مما يؤكد حقيقة قديمة جديدة، هي أنَّ معرفةَ دوافع المعتدين وتحليلها هي طريقٌ علمية لبناء إستراتيجية يمكن بوساطتها التعامل مع الآثار المستمرة علىٰ هذا التراث مثل السرقة والتعامل المجَّاني الرخيص مع هذه الكنوز عظيمة القيمة.

لقد تسبَّبت الحروبُ من جهة، والاستبداد من جهة ثانية، في إيجاد حراك مخطوطي بين خزائن المدن الأربعة (بغداد، حلب، دمشق، القدس)

---

(١) كتب التراث بين الحوادث والانبعاث، ص٦٠، عن خزائن الكتب العربية في الخافقين ٥٨٧/٢.

وربما باقي مدن المنطقة العربية، ولعل ذلك شكَّل - أحيانًا - نوعًا من تجاوز الآثار السلبية للحروب والمحن باستثناء حالة التجميد العالية التي خضعت لها الذخيرةُ المخطوطية حين تراجعتْ هذه المدن بثرواتها المخطوطية بُعيد الحرب العالمية الثانية داخل دول وحدود مصطنعة أورثتْهَا عُزلةً عميقة، وقطَّعَتْ السُبل بينها، فقبعت في جمود رهيب إلى حدود هذه اللحظات!

❊ ❊ ❊

الفَصْلُ الأَوَّلُ

عاصمتا التراث المخطوط في سورية (حلب ودمشق)

حلب ودمشق مدينتان مفعمتان بعبق التاريخ، غنيتان بمعالم الحضارة، زاخرتان بالخزائن العامرة، والنُّسَخ النادرة، لم يَحُل القدر دون وقوعهما في أتون الحروب والصراعات، التي دمرت تراثهما، ونهبتْ ثرواتهما العلمية والفكرية.

اسمان لا يمكن تجاوزهما حين الحديث عن المخطوطات في سورية: المكتبة الظاهرية الدمشقية، والمكتبة الوقفية الحلبية، وثمة تاريخٌ مشترك من الحوادث القاهرة ربط بين المكتبتين، تاريخٌ من الحروب والإهمال والتخلف، سيكون له دور في إفراغ هاتين المكتبتين من مخطوطاتهما بشكل شبه نهائي مع اقتراب العقود الأخيرة من القرن العشرين.

إنَّ التمعُّن في أثر الحروب على التراث المخطوط في هاتين المدينتين اللتين تُعدَّان من عواصم المخطوطات في المنطقة العربية كلها، يؤكد أنَّ الحروب التي اجتاحتْهما تتقاطع جزئيًّا مع الحروب التي اجتاحت المنطقة بشكل عام، وأثَّرت على التراث المخطوط فيهما، ليس بوجوده المادي بوصفه مخطوطات وخزائن فحسب، وإنما بوصفه وثائق رفيعة المستوى ومصدرًا سجَّل الفكرَ والعلمَ والأطيافَ النفسية والمجتمعية للمدينة التي حضنت مخطوطاتها تاريخيًّا.

هاتان المكتبتان ضمَّتا حتى الربع الأخير من القرن العشرين الحصيلةَ الباقية من المخطوطات التي كانت موزعة بين خزائن المدارس القديمة والزوايا والمساجد والتكايا والخزائن التاريخية الخاصة، التي ترجع إلى الحقبة الحمدانية في حلب والدولة الأيوبية في كلٍّ من حلب ودمشق.

في اللحظات الراهنة تعيشُ مدينةُ حلب في خضمِّ معارك طحنت حجارتها، أمَّا تراثها المخطـوط فلا شك أنه أكثر رقة من حجارتها في مواجهة النيران والقذائف. ويبقى سؤالنا عن مصير المخطوطات والوثائق في حلب قائمًا لمدة طويلة لا ينتظرُ إجابةً فحسب، بل محاولاتٍ علميةً دقيقة لإعادة البناء والاسترداد في مدينة تفقد مخطوطاتها ووثائقها، كما تفقد أمكنتها وحجارتها القديمة جدًّا !

مدينة حلب بدون مخطوطاتها !

جاهدتْ حلب منذ عقود كي تحافظ على تراكماتها الثقافية الهائلة، وعلى مركزيتها الجريئة القائمة منذ وقت مبكر من التاريخ إلى أن وصلت إلى اللحظة الحاضرة، غير أنَّ المدينةَ لم تُفلح دومًا في ذلك، وبدأتْ تفقدُ مخزوناتها شيئًا فشيئًا، وكان من بين ما فقدتْهُ معظمُ تراثها المخطوط، غير أنَّ فقدانَها الأشد في هذه اللحظات دمارُ أمكنتها القديمة ونسيجِها المعماري التاريخي الذي كان ما يزال قائمًا بكل تكويناته منذ شهور. لقد نال الدمار نيلًا من تلك الحاضنة الطبيعية للتراث المخطوط في المدينة.

كانت حلب مدينةً مُفعمة بالتاريخ، ليس تاريخًا مُتقشفًا ولا فقيرًا، بل ثري ومليء. هي مدينةٌ انتهتْ إليها طرق التجارة ورؤوسُ الأموال والخبرات. وقد أثَّرَ ذلك الثراء في خزائنها التي اغتنتْ بالمخطوطات كمًّا ونوعًا ونُدرةً. تميزتْ حلب بانتشار الخزائن الخاصة، وبرز فيها إتقانُ النسخ والخط وجودة التجليد. إنَّ هذه الأسباب نفسها هي التي جعلتْ

خزائنها عُرضةً مرات عديدة للحروب وآثارها المدمرة، منذ أن اجتاحها تيمورلنك (٨٠٣هـ - ١٤٠٠م) حتىٰ الدمار الهائل الذي تتعرض له المدينة في هذه اللحظات.هذه الخزائن شَكَّلَتْ الجبهةَ الداخلية العميقة التي بقيتْ تقُضّ مضجعَ المهاجمين، فلا يهدأ لهم بال حتىٰ يباشروا دكَّها وإحراقها.

لقد وقعتْ كلُّ نتائج العلاقة الإشكالية ما بين (الحرب والتراث) فوق رأس هذه المدينة، يرجع ذلك إلىٰ خصوصيتين تتعلقان بحلب:

أولاهما: أنَّ حلب التاريخية كانت جبهة متقدمة في الشمال، وخلال العصور الإسلامية كانت واحدةً من المدن الكبرىٰ في الحقب الأموية والعباسية، ومركزًا دفاعيًّا متقدمًا علىٰ الحدود مع الدولة البيزنطية، ومكانًا لتجمع الجيوش الإسلامية المنطلقة لمحاربة الدولة البيزنطية، ثم تعرضت للتدمير خلال حروب سيف الدولة مع البيزنطيين حين تمكن نقفور فوكاس من أن يحتلَّها ويخربها تمامًا عام (٣٥١هـ-٩٦٢م)، فيقتل أكثر سكانها ويستبيحها لمدة ثمانية أيام، ثم يأتي الدمار الهائل علىٰ يد هولاكو المغولي (٦٥٩هـ-١٢٦٠م)، ثم الدمار المغولي الثاني علىٰ يد تيمورلنك (٨٠٣هـ-١٤٠٠م). هي مدينةٌ وقعتْ علىٰ خطٍّ ساخن من المواجهات والحروب التاريخية.

أمَّا **الخصوصية الأخرىٰ** فتتمثل في الحضور القنصلي الكثيف والمبكر، فقد وُجِدَ في المدينة عددٌ كبير من القنصليات والجاليات الأجنبية التي مثّلَتْ أكثر دول العالم، حتىٰ زاد عددُها علىٰ ثمانين قنصلية ووكالة في القرن السابع عشر، أهمها: قنصلياتُ البنادقة والفرنسيين والهولنديين والإنكليز. في عام ١٥٣٥م وقَّع سليمان القانوني معاهدة مع فرنسا تم بموجبها افتتاح قنصلية وممثلية تجارية فرنسية في حلب، وتَلَتْها معاهدات مع بريطانيا وهولندا.

إنَّ هذا الوجود القنصلي الأوروبي المبكر في حلب وضع تراثها وجهًا لوجه أمام ما يمكن أن نسميه (الأثر المستمر للحروب الصليبية)، فقد

بدأ تجار ولصوص المخطوطات وسماسرة المستشرقين عملَهم مبكرًا جدًّا فيها، وأسهموا في تغريب عدد كبير من المخطوطات النادرة، يقول الغزي مؤرخ حلب وشاهد العيان على خزائن مخطوطاتها في مطلع القرن العشرين «أدركنا في مدينة حلب مكتبات غنية بالكتب المخطوطة النادرة قد تسلَّط عليها لصوص الكتب، فسلبوها كل ما حوتْه من الظرف والتحف. وإننا منذ زمن الصبا حتى الآن نرى تجار الكتب المخطوطة يتردَّدون إلى حلب ويملأون من مكتباتها الصناديق الكثيرة، عدا ما نراه من سُوَّاح الغرب وسماسرة المستشرقين الذين يختطفون الكتب النفيسة الخطية من أيدي طائفة من البسطاء لا يفرقون بين الطين والعجين، فيشترونها منهم بأبخس الأثمان»[1].

ويتابع الغزي تثبيت شهادته المتعلقة بالمخطوطات الموجودة في البيوت الحلبية وكثرتها، وكيف كانت تتعرَّض للإهمال أو البيع الارتجالي الرخيص «وإني على يقين من أن مدينة حلب ما زال يوجد فيها العدد العظيم من الكتب الخطية النادرة التي إذا بحثتَ عنها وجدتَها في زوايا الإهمال والنسيان في بيوت جماعة من جهة العامة...»[2].

ساعدتْ الكثافةُ القنصلية النَّشِطة في المدينة على ظهور بعض العائلات التي تخصصتْ بعمليات شراء المخطوطات وبيعها لهؤلاء القناصل وتجارهم، فقامتْ بدور الوسيط بين خزائن المدينة العامة والخاصة من جهة، ومكاتب ومقرَّات تلك السفارات من جهة أخرى. ويبدو أن عرضًا سهلًا ومجانيًّا كان يتم لهذه (المخطوطات) في أحد الأسواق الشعبية في المدينة وهو (سوق الجمعة) حيث تُباع المخطوطاتُ والكتب القديمة بأسعار مُدهشة في

(١) نهر الذهب، ص١٤١.
(٢) المصدر السابق، ص١٤١.

رخصها وبساطتها، فيأتي من يعرف قيمتها، فيشتريها تقريبًا (بدون ثمن)، فلا تلبث أن تتحوَّل إلىٰ تُحفة لا تُقدَّر بثمن، بعد رحلة (انتقالات) إلىٰ أنْ ينتهي المقامُ بهذه المخطوطات إلىٰ (اللوفر) أو (المتحف البريطاني).

أدَّتْ هذه الكثافةُ القنصلية إلىٰ جانب الدمار الذي تعرضتْ له حلب مرات ومرات[1]، إلىٰ أنَّ عددًا قليلًا جدًّا من مخطوطاتها الهائلة حُفِظت في خزائن العائلات الحلبية وفي الخزائن الوقفية لإنقاذها من السَّلْب والنَّهْب الذي تعرَّضت له معظم المخطوطات.

بدأ وضع المخطوطات بالتدهور والانحدار الشديد في أواخر القرن التاسع عشر، حين أضحت المخطوطات بيد مَن لا يعرف قيمتها التاريخية ولا العلمية، فجرىٰ إهدارها بسهولة، وما تبقىٰ منها وُضع داخل الجامع الأموي، وفي ما بعد نُقِلتْ بقيةُ تلك المخطوطات إلىٰ المكتبة الخسروية، وبعد ذلك إلىٰ المدرسة الشرفية، لتصبح مقرًّا للمكتبة الوقفية (دار الكتب الإسلامية) التي تقع قرب الجامع الأموي في قلب المدينة القديمة.

تميزت حلب بكثرة أوقافها واتِّساعها، وكان لذلك تأثيرٌ كبير علىٰ الثروة المخطوطية فيها، فقد وصلتْ مقاصدُ الوقف وأهدافه إلىٰ هذه الثروة أيضًا حين شملت من بين ما شملته المساجدَ والجوامع والمدارس والزوايا وما فيها من خزائن المخطوطات.

أقدمُ تكوينات المدينة التي شكلت مؤسساتٍ رسمية ومراكز لخزائن المخطوطات كانت (المدارس) التي تعد أولىٰ خزائن المخطوطات في القرنين السادس والسابع الهجريين في حلب[2].

---

(١) إعلام النبلاء ١١٧/٧.

(٢) الأعلاق الخطيرة ٢٠١/١-٢٨٦.

جدول (٣)

المدارس (بوصفها نواة خزائن المخطوطات في حلب) في القرنين السادس والسابع الهجريين

المدرسة	تاريخ إنشائها	موقعها من المدينة القديمة	وضعها حتى منتصف العام ٢٠١٢م	وضعها الحالي
الشاذبختية الجوانية الحنفية	٥٨٩هـ	داخل الأسواق القديمة (سوق الزرب)	الآن معروفة بجامع الشيخ معروف	هناك دمار أصاب الأسواق القديمة وخاصة سوق الزرب مكان هذه المدرسة
الشاذبختية البرانية الحنفية	٥٨٩هـ	كانت تقع في شمالي حلب في (مشهد الزرازير)	هدمت في القرن التاسع الهجري[(١)]. اندثرت ولا أثر لها	-
بني العجمي الشافعية والمالكية	٥٩٥هـ	في محلّة الجبيلة بالقرب من باب الحديد	معروف بجامع أبي ذر (أحمد سبط ابن العجمي)	باب الحديد تعرضت لدمار
الجرديكية الحنفية	٥٩٠هـ	في سويقة علي قرب خان الوزير	اندثرت	-
الصاحبية الشافعية	٦٠١هـ	داخل باب النيرب شمالي جامع الطواشي، وقيل بين السفاحية وساحة بزه بالقرب من جامع الموازيني	اندثرت ويُعتقد أنها خربت في زلزال ١٢٣٧هـ[(٢)]	-

(١) للتوسع: كنوز الذهب ٣٤٦/١-٣٤٧، ٣٥٧، ٣٥٨، وإعلام النبلاء ٧٤/٢ و٣٠٢/٤.

(٢) انظر: كنوز الذهب ٢٨٧/١-٢٩٤، ونهر الذهب ٢٩٤/٢، وإعلام النبلاء ٢٥٥/٤، ٣٦٥-٣٦٧.

المدرسة	تاريخ إنشائها	موقعها من المدينة القديمة	وضعها حتى منتصف العام ٢٠١٢م	وضعها الحالي
الهروية الشافعية	٦٠٢هـ	خارج باب المقام في محلّة الفردوس	تخربت في فتنة التتر بقيت أحجار بابها وآثار جدرانها[١]	-
السيفية الحنفية	٦٠٦ هـ	في محلّة الكلاسة خارج باب قنسرين[٢]	اندثرت	-
الظاهرية الشافعية	٦١٠هـ أو ٦١٦هـ	خارج باب المقام	بقي منها محرابها وعمودان من الرخام وفي وسطها حوض مثمن[٣]	؟[٤]
السيفية الشافعية والحنفية	٦١٧هـ	في الفرافرة	اندثرت[٥]	-
دار الحديث	٦١٨هـ	في باب النيرب شمالي جامع الطواشي.. وقيل بين السفاحية وساحة بزه قرب جامع	اندثرت ويعتقد أنها خربت في زلزلة ١٢٣٧هـ[٦]	

(١) كنوز الذهب ٣١٩/١ - ٣٢٢، نهر الذهب ٢٢١/٢-٢٢٣، إعلام النبلاء ١٨٤/٢ - ١٨٥ و٣١٣/٤ - ٣١٧.

(٢) كنوز الذهب ٣٥٨/١-٣٦١، إعلام النبلاء ١٩١/٢ و٣٢٦/٤-٣٢٨.

(٣) كنوز الذهب ٣١٧/١-٣١٩، نهر الذهب ٢٢٥/٢، ٢٢٦، إعلام النبلاء ١٨٣/٢، ١٨٤، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٤) تشير إشارة الاستفهام إلى عدم معرفة مصير هذه المدارس إن كانت دُمِّرَتْ جزئيًا أو كليًا. وكلها واقعة في حلب القديمة وما تزال معرضة حتى الآن للدمار.

(٥) كنوز الذهب ٣١٦/١، ٣١٧، إعلام النبلاء ١٩١/٢ و٣٧٤/٣ و٣٢٧/٤.

(٦) كنوز الذهب ٢٨٨/١-٢٩٤، ٣٧٧، ٣٧٨، نهر الذهب ٢٩٤/٢، إعلام النبلاء ٣٦٦/٤، ٣٦٧.

المدرسة	تاريخ إنشائها	موقعها من المدينة القديمة	وضعها حتى منتصف العام ٢٠١٢م	وضعها الحالي
		الموازيني بجانب المدرسة الصاحبية، بنى الجامعين القاضي بهاء الدين ابن شداد		
الأتابكية الحنفية	٦١٨هـ	كانت تقع في ساحة بزه تجاه باب جامع العادلية[١]	اندثرت	-
السلطانية الحنفية والشافعية	٦١٣هـ	في محلّة السفاحية تجاه باب القلعة من الجهة الجنوبية	جرى ترميمها للمرة الأولى ١٣٠٣هـ/١٨٩٣م وكان الترميم الثاني أوائل القرن الرابع عشر الهجري، والترميم الثالث ١٣٤١هـ/١٩٢١م لا تزال قائمة حتى الآن[٢]	المنطقة ساحة معارك. حجم الدمار غير معلوم.
الحسامية الحنفية	٦١٥هـ أو ٦٢٥هـ	في محلّة الفرافرة وراء جامع الناصرية (جامع الحيات)	اندثرت	-
الرواحية الشافعية	٦٢٣هـ	في أول زقاق الزهراوي من الجهة الجنوبية أمام المدرسة الشرفية	بقي منها بضعة حجارة وبابها	المكان ساحة مواجهات ومعارك
الدقاقية الحنفية	٦٣٠هـ أو ٦٠٠هـ	في محلّة الكلاسة شمالي الفيض	مندثرة منذ قرون	-

(١) كنوز الذهب ٣٤٨/١، ٣٦٧، ٣٦٨، نهر الذهب ٩٢/٢، ٩٣، إعلام النبلاء ٢٠٣/٢، ٢٠٤.

(٢) كنوز الذهب ٢٩٤/١-٣٠١ ، نهر الذهب ٩٨/٢، ٩٩ ، إعلام النبلاء ١٨١/٢-١٨٣.

المدرسة	تاريخ إنشائها	موقعها من المدينة القديمة	وضعها حتى منتصف العام ٢٠١٢م	وضعها الحالي
الأسدية الحنفية	٦٣٢هـ	كانت في محلَّة السفاحية	اندثرت ودخلت في حدود المدرسة الخسروية	-
دار الحديث الحنفية	٦٣٢هـ	في السفاحية تجاه باب القلعة	اندثرت	-
الفردوس الشافعية	٦٤٠هـ	في محلَّة الفردوس خارج باب المقام	قائمة حتى الآن وتقام فيها الصلوات[1]	؟
البلدقية الشافعية	٦٣٥هـ	ظاهر حلب قرب الكلاسة	اندثرت	
العديمية الحنفية	٦٦٠هـ	خارج باب النيرب	اندثرت	
الشرفية الشافعية	٦٤٠هـ	في محلَّة سويقة حاتم شرقي الجامع الكبير بالقرب من خان الوزير أمام سوق الزهراوي	قائمة وتقام فيها الصلوات. رممت مرات ١٣٤٢-١٣٤٣- ١٣٦٩. فيها خزائن الكتب بعد سنة ١٣٦٩ تحولت إلى مكتبة للكتب الوقفية[2]	؟
الجمالية الحنفية	٦٤١هـ	محلَّة الفردوس خارج باب المقام	اندثرت	-
القيمرية الشافعية	٦٤٦هـ	خارج باب المقام خارج حلب	اندثرت	-

(١) كنوز الذهب ١/٣٢٢-٣٣٠، ٣٧٨، نهر الذهب ٢/٢١٨-٢٢٠، إعلام النبلاء ٢/٢١٣-٢١٧.

(٢) كنوز الذهب ١/٣١٠-٣١٥، نهر الذهب ٢/٢٠٢-٢٠٤، ٤٩٨، إعلام النبلاء ٤/٤٢٥-٤٣٠.

المدرسة	تاريخ إنشائها	موقعها من المدينة القديمة	وضعها حتى منتصف العام ٢٠١٢م	وضعها الحالي
الفطيسية الحنفية	٦٤٩هـ	في جنوبي قلعة حلب في السفاحية	اندثرت	-
البلدقية الحنفية	النصف الأول من القرن السابع الهجري	في ظاهر حلب في الكلاسة	اندثرت	-
مدرسة شافعية مجهولة الاسم	النصف الأول من القرن السابع الهجري	محلَّة باب المقام	اندثرت	-
القليجية الحنفية	٦٥٠هـ	محلَّة الفرافرة غربي قلعة حلب	اندثرت	-
مدرسة شافعية مجهولة الاسم	٦٥٢هـ	خارج باب المقام	اندثرت	-
النقيب الحنفية	٦٥٣هـ	في الأنصاري في أعلى جبل جوشن بالقرب من مشهد محسن	اندثرت	-
الزيدية الشافعية	٦٥٥هـ	داخل باب أنطاكية في الجلوم الكبرى	اندثرت	-

بُنيث المدرسةُ الأولى في حلب في العهد السلجوقي، وهي المدرسة الزجاجية[١] (٥١٦هـ/١١٢٢م) ثم توقَّف إنشاء المدارس بعد ذلك بسبب عدم الاستقرار الذي ساد البلاد وحالة الحرب مع الصليبيين، واستمرَّ الوضع كذلك حتى العهد الزنكي. هناك (١٢) مدرسة تعود إلى العهد الزنكي من بين المدارس التي ذكرها ابن شداد والمبينة في الجدول (٣)، والجدير بالذكر أن البيمارستانات التي أنشئت في نهايات العهد الزنكي وخلال العهد الأيوبي في حلب لم تكن مجرد مشافٍ فقط، فداخل البيمارستان الأرغوني والبيمارستان النوري كانت تُلقى محاضرات ودروس في الطب، وكان في حلب مدرسة للهندسة بُنيت في العهد الأيوبي أنشأها نجم الدين اللبودي في القرن السادس الهجري[٢]. وفي كل من هذه الأكاديميات الطبية أو الهندسية كانت تقوم خزائنُ للمخطوطات خاصةٌ بها.

التَّتر وخزائن التراث المخطوط .. بين الإحراق والضياع

بدأ الاهتمام بخزائن الكتب (المخطوطات) على نحو كبير ومُؤَسَّسي في مدينة حلب منذ الحقبة الحمدانية، واستمر هذا الاهتمامُ في عهد نور الدين محمود بن زنكي، وبلغ ذروةً نوعية خلال النهضة الحضارية الشاملة التي حصلت في عهد الأيوبيين. تعد الحقبة الحمدانية الذروة النهضوية الحضارية الأولى التي شهدتْها حلب منذ الفتح الإسلامي، فقد تكاثرت المخطوطات فيها واستمرَّت وازداد عددُها[٣]، وبدأتْ المدينةُ

(١) كنوز الذهب، ٢٧٢/١، إعلام النبلاء، ٢٣٨/٤، الأعلاق الخطيرة، ٩٦/١/١، دور العلم في مدينة حلب، ص٣٩٩.

(٢) دور العلم في مدينة حلب، ص٣٩٩.

(٣) نهر الذهب، ١٣٩/١.

تزخَر بمؤسسات علمية وتعليمية مثل المدارس والزوايا والخانقاهات، أمّا المساجد فقد أضحتْ مكانًا للحوارات العلمية والفكرية، ونمَتْ حول الأروقة والأعمدة داخل المساجد وظيفةٌ ثقافيةٌ شديدة الأهمية.

في كل هذه التكوينات الجديدة كان لابد من (خزائن المخطوطات) التي عكستْ في كل مرحلة ما أدتْهُ هذه الحركةُ العلمية الثقافية وما استندتْ إليه من مصادر ومراجع، إلىٰ أن أصبحتْ هذه الخزائن لا تعكس محتواها الكتابي النصوصي فقط، بل تعني - لاجتماعها معًا - حضورًا علميًّا وفكريًّا له دلالاتُه. وقد ذكر الطباخ أن مكتبة الشرفية التي أوقفها شرف الدين عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن العجمي (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م) علىٰ مدرسته التي أنشأها شرقيَّ الجامع الأموي الكبير كانت تضمُّ الكتب النفيسة من كل فن، من حديث وتفسير وفقه ونحو وغيرها[١]. من كتب هذه المكتبة جميع كتب الإمام الشافعي، وتفسير الثعلبي وغيره من التفاسير، والنهاية والحاوي الكبير والإبانة والتتمة والذخائر والشامل. ومن الحديث الكتب الستة، وكان بها جميع كتب المذاهب، ولم يفته شيء سوىٰ كتب الرافعي والنووي. وكان بها أربعون نسخة من التنبيه للإمام أبي إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، وجميع كتب الغزالي، وقد فُقدت هذه المكتبة غالبًا في هجوم هولاكو.

من الخزائن المفقودة في حلب التي كانت علىٰ جانب عظيم من الغنىٰ ثلاث خزائن كتبها بخطه الشيخ أبو الحسن بن أبي جرادة (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) في أوائل العهد الزنكي[٢]، وهو من أجداد المؤرخ كمال الدين ابن

---

(١) إعلام النبلاء، ٤/٤٢٧.

(٢) المصدر السابق، ٤/٤٣٣.

العديم: الأولى لنفسه والثانية والثالثة لابنَيه أبي البركات وعبد الله. وكانت هناك خزانة بني الشحنة وخزانة بني العديم وخزانة بني الخشاب، وغيرهم من بيوتات العلم. إن جميع هذه الخزائن فُقدت برُمَّتها في حادثة تيمورلنك[١]. من المكتبات الخاصة مكتبة المحدِّث الكبير إبراهيم بن محمد بن خليل المعروف بالبرهان الحلبي (ت٨٤١هـ / ١٤٣٧م) الذي حمل كتبه إلى القلعة خوفًا عليها من هجوم التتار، لكن هذا لم يُجْدِه، فسُلبت مكتبته الضخمة، وأُسِر مع مَنْ أُسِر.

أمَّا الخزائن العظيمة في حلب الحمدانية التي آلت إلى الجامع الأموي، بعد أن أوقفها على الجامع سيفُ الدولة الحمداني، فقد أُحرقت، يقول الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام «كان بجامع حلب خزانة للكتب، وكان فيها عشرة آلاف مجلد مِنْ وقف سيف الدولة بن حمدان وغيره، فلما صُلب ثابت بن أسلم - وكان صلبُه قريبًا من سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٧م)[٢] - أُحرقت هذه الكتب»، وكان ثابت هذا قد ولي خزانة الكتب.

إنَّ اجتياح التَّتر لحلب المعروف عند المؤرخين الحلبيين بـ(حادثة تيمورلنك) يُعَدُّ أقدم حرب نالتْ من التراث المخطوط في المدينة، فما زالتْ «... حلب على تلك الثروة العلمية حتى دهمتْها حادثة تيمورلنك، فصدمتها صدمة كادت تذهب بكيانها، فخرَّبت مدارسها وأبادت علماءها لأنهم أصبحوا ما بين قتيل وأسير ومشرَّد عن وطنه...»[٣].

---

(١) نهر الذهب، ١/١٤٢.

(٢) المكتبات الإسلامية الوقفية، ص٢١٢.

(٣) نهر الذهب، ١/١٣٤.

جدول (٤)

بعض خزائن المخطوطات التي فُقِدتْ في هجوم التَّتر

خزانة الجامع الأموي الكبير بحلب بما فيها الخزائن الحمدانية التي أوقفها سيف الدولة على الجامع
خزانة بني الشحنة
خزانة بني العديم
خزانة بني الخشاب
خزانة العلّامة المحدث إبراهيم بن محمد بن خليل المعروف بالبرهان الحلبي (أسره التّتر)

البيئة المجتمعية الحاضنة للتراث المخطوط
إحـدىٰ الصادَّات التي خفَّفت من أثر الحروب ...

شكلتْ هذه البيئة إحدىٰ الصادَّات التي خفَّفت من أثر الحروب في ضياع التراث المخطوط وتدميره. سبق أنْ ذكرنا أنَّ حلب مدينةُ الأسواق والتجارة والصفقات، وقد امتلكت زمامَ التجارة العالمية، وكانت طريقًا بريًّا محوريًّا وحاسمًا[1]، وهي كذلك مدينةُ العلاقات الخارجية الواسعة، وقد تضافرتْ هذه الظروف لتكون سببًا في تكاثر المخطوطات في المدينة علىٰ نطاق واسع، سواء بسبب كثرة الاستنساخ، أو بسبب اقتناء وشراء المخطوطات، كان ذلك متاحًا بسبب الغنىٰ الذي تمتَّعت به المدينة استنادًا إلىٰ بنيتها التجارية وثرائها. والغزي[2]، وهو أحد مؤرخي مدينة حلب - في بداية

---

(١) بقي دور حلب التجاري نشطًا حتىٰ افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م حيث فقدت حلب ٩٠٪ من تجارتها لصالح الطريق البحري عبر قناة السويس.

(٢) الشيخ كامل الغزي، (١٢٥١-١٣٥٢هـ/١٨٣٥-١٩٣٣م) مؤرخ حلبي. له «نهر الذهب في تاريخ حلب»، ولد وتوفي في حلب.

القرن العشرين - يسجل شهادته في ذلك «... فقد أدركنا الكثيرين من علماء حلب وأغنيائها وهو شديد العناية باقتناء الكتب المخطوطة النادرة، حتىٰ إنهم كانوا يتسابقون إلىٰ اقتنائها، ويبذلون الأموال الطائلة في استنساخها.. أدركنا منهم من استكتب كتاب (رد المحتار حاشية الدر المختار) فصرف علىٰ استنساخه نحوًا من مئة ذهب عثماني. ومنهم من استكتب كتاب (تاج العروس) لمرتضىٰ الدين الزبيدي شرح قاموس الفيروزابادي، فصرف عليه نحوًا من مئتي ذهب عثماني...»[1]. إنَّ تكاثف الطلب داخل المدينة علىٰ المخطوطات سبَّبَ ازديادًا ملحوظًا في عدد النُّساخ والخطاطين، وتحوَّل (نسخ المخطوطات) إلىٰ حرفة مُهِمّة ضمَّتْ عددًا كبيرًا من الخطاطين الماهرين، حتىٰ اشتهرت حلب بالخطاطين الكبار، وكان المجتمعُ الحلبي هو مَنْ ابتكرَ المثلَ القائل «حُسنُ الخط سوارٌ من ذهب»[2]. كان للنساخين والخطاطين جناح خاص في سوق الكتبية بحلب[3]، كما ازدهرتْ إلىٰ حدٍّ ما حرفة أخرىٰ هي حرفة (تجليد المخطوطات)، وقد اغتنتْ المدينةُ بعدد كبير من الخزانات الجميلة، وكلُّ ذلك يعني وجود عدد كبير من المخطوطات في كل أنحاء المدينة.

عَرَفَتْ مدينةُ حلب بسبب هذه الحاضنة المجتمعية المتنوعة لـ (التراث المخطوط) أعلامًا اشتهروا بخزائنهم ومخطوطاتهم، منهم القاضي جمال الدين القفطي الحلبي (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) صاحب كتاب (إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة) الذي كان يسعىٰ كل السعي في شراء الكتب واقتنائها وإحضارها من البلدان البعيدة بخطوط مؤلفيها، أو بخطوط أكابر العلماء المشهورين حتىٰ اجتمعت له مكتبة جامعة نادرة المثال، قُدِّر ثمنها بخمسين ألف دينار، وله

---

(١) نهر الذهب، ١/١٤٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص٨.

حكايات عجيبة في غرامه بالكتب، وقصته في ضياع كتاب (الأنساب) لابن السمعاني منه وحزنه واستدعائه من يندب عليه كما يندب على الميت قصةٌ مشهورة! لعلها طرفة، لكنها صدى الواقع على كل حال.

كما اشتُهر الشيخ أحمد الحجار العالم الفقيه المحدِّث (ت١٢٧٨هـ/١٨٦١م) بغرامه العجيب بالكتب وجمعها واقتنائها، فقد بلغت قيمة مكتبته بعد موته أربعين ألفًا على الرغم من أنها بيعت بغير أثمانها.

أما الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة العالم المحدث (ت١٤١٧هـ/١٩٩٦م) فكان ينذر أن يصلي لله كذا وكذا ركعة إن هو حصل على كتاب يطلبه، وربما باع أغلى ما يملك في سبيل الحصول على الكتاب، وقصته في بيع (شالته) الثمينة التي ورثها عن والده مشهورةٌ في ذلك. أما قصته في الحصول على كتاب «فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية» فهي من العجائب.

جدول (٥)

عائلات حلب التي ارتبط اسمها بخزائن مخطوطات

اسم العائلة	خزانة المخطوطات
الكواكبي	المدرسة الكواكبية
البادنجكي	المدرسة الطرنطائية
الجزار	خزانة الجامع الكبير (الأموي)
البخشي	الزاوية الإخلاصية
المكتبي	خزانة الجامع الكبير (الأموي)
الملاح	خزانة المدرسة الخسروية
العينتابي	خزانة خاصة
الغزي	خزانة خاصة
ابن آل العقيلي	خزانة خاصة

اسم العائلة	خزانة المخطوطات
آل طلس	خزانة خاصة
بنو الشحنة - بنو الخشاب - بنو العديم ابن خطيب الناصرية - ابن العشاري	عُرفت لهم خزائن مخطوطات تاريخية دُمرت وفقدت جميعها في هجوم التتر أو ما يسميه المؤرخون الحلبيون عادةً بـ(حادثة تيمورلنك) ٨٠٣هـ/١٤٠٠م.

خزائن التراث المخطوط في ولاية حلب العثمانية
ليست الحروب وحدها ! الإهمال ، النهب ، التفريط

تميزت الحقبة العثمانية بحضور نسبة معقولة من (التوثيق) في الأداء الإداري لمؤسسات الدولة، فكان من ضمن هذه التوثيق إحصاءات تتعلق بعدد المخطوطات في ولاية حلب. هذا الإحصاءُ وجدناه في مصدرين:

الأول: كتاب وزارة المعارف العمومية للعام المالي (١٣١٠ - ١٣١١هـ / ١٨٩٢ - ١٨٩٣م) لجميع البلدان العثمانية. وفيه: كان في ولاية حلب (١٢) مكتبة فيها (٥٠٣٥) مخطوطة.

أما الإحصاء الثاني فنجده في (سالنامة)[1] ولاية حلب لعام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) وفيه إحصاء بعدد الكتب الموجودة في مكتبات حلب عام ١٩٠٨م.

---

(١) السالنامة، من التركية، عن الفارسية. (سال) السنة و(نامه) النشرة. أطلقها العثمانيون على الكتاب السنوي عن بلد من بلادهم. ولأهمية حلب، كان أول سالناماتهم سالنامة حلب، وهي سجل رسمي عنها. عن (موسوعة حلب المقارنة، محمد خير الدين الأسدي).

جدول (٦)

خزائن المخطوطات في مدارس حلب (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)

خزائن المخطوطات	عدد المخطوطات (فيها مطبوعات)
المدرسة الأحمدية	١٤٦٧
المدرسة العثمانية	١٢٤٢
التكية المولوية	١٢٢٨
الجامع الكبير (الجامع الأموي)	٨٠٧
المدرسة البهائية	٧٠
المدرسة الإسماعيلية	٥١
المدرسة القرناصية	٢١

والإحصاء السابق لا تدخل فيه مخطوطات الخزائن الخاصة، وكان فيها أنفس المخطوطات وأثمنها.

أما أعداد المخطوطات في خزائن المدارس حتى عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م[١] فيظهرها الجدول التالي:

جدول (٧)

المخطوطات في مكتبات الأوقاف بمدينة حلب

حتى عام (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)

الخزانة	عدد المخطوطات
المدرسة الأحمدية	٣٠٠٠
المدرسة الرضائية (العثمانية)	١٥٠٠

(١) المخطوطات في مكتبات الأوقاف بمدينة حلب، سامي الدهان، مجلة الجامعة الإسلامية، ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.

الخزانة	عدد المخطوطات
مكتبة الأوقاف	آلاف
التكية المولوية (المنلا خانة)	١١٠٠ مجلد تتضمن مطبوعات
البهائية	مخطوطات نادرة ثمينة

أما خزائن المخطوطات التي كانت موجودة في حلب في أوائل القرن الرابع عشر الهجري / نهايات القرن التاسع عشر، فقد وجدت (١٦ خزانة) موزعة في كل أنحاء المدينة. ويُظهر الجدول التالي هذه الخزائن وتاريخ إنشائها:

جدول (٨)

خزائن المخطوطات في ولاية حلب (نحو ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) وتاريخ إنشائها (مفقودة كليًا أو جزئيًا)

الخزانة	تاريخ إنشائها
التكية المولوية	٩٣٠هـ/١٥٢٣م
دار الحديث	١٠٠٤هـ/١٥٩٥م
تكية أبي بكر الوفائي	أوائل القرن الحادي عشر الهجري/ أواخر القرن السادس عشر الميلادي
الزاوية الرفاعية (الإخلاصية)	١٠٤٤هـ/١٦٣٤م
المدرسة العثمانية	١١٤٣هـ/١٧٣٠م
المدرسة الكواكبية	١١٦٠هـ/١٧٤٧م
المدرسة الأحمدية	١١٦٥هـ/١٧٥١م
المدرسة المنصورية	١٢٠٢هـ/١٧٨٧م
المدرسة الطرنطائية	١٢٤٢هـ/١٨٢٦م
المدرسة القرناصية	١٢٤٢هـ/١٨٢٦م
المدرسة الاسماعيلية	١٢٥٥هـ/١٨٣٩م

الخزانة	تاريخ إنشائها
المدرسة البهائية	١٢٦٠هـ/١٨٤٤م
المدرسة الصديقية (جامع الأحمدي)	١٢٩٤هـ/١٨٧٧م
الجامع الأموي الكبير	أضيف إليها مخطوطات آل الجزار وآلاتهم الفلكية ١٣١١هـ
المدرسة الخسروية	أعيد تنظيمها وجمعت فيها مخطوطات مكتبات قديمة وخاصة ١٣٣٨هـ
المكتبة الوقفية (مكتبة الأوقاف العامة)	جمعت فيها معظم مخطوطات الخزائن الحلبية ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م

وفي ما يأتي تعريف ببعض هذه الخزائن وسبب فقدان مخطوطاتها جزئيًا أو كليًا:

خزانة التكية المولوية (نهب وضياع)

تُعَدُّ هذه الخزانة من أغنى الخزائن بالمخطوطات، كان فيها غرفة كبيرة حوت خزائن مملوءة بمخطوطات عربية وفارسية وتركية وكردية، وقد غُذيت ورُفدت بالمخطوطات منذ تأسيسها في سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م. وما لبثْ أن تعرضت للنهب والضياع، وذلك لعدم انتظام أمرها، وتهاونِ القائمين عليها. وفي سنة ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م نُقِلَ ما تبقّى من مخطوطاتها إلى خزانة المدرسة الخسروية، ثم نُقِلتْ مع خزانة الخسروية إلى مكتبة الأوقاف العامة (المكتبة الوقفية) لدى إنشائها في المدرسة الشرفية سنة ١٣٤٥هـ /١٩٢٦م. كان عدد المخطوطات فيها قبل عمليات النقل والضياع نحو (١١٠٠) مجلد بين مخطوط ومطبوع[1].

---

(١) المكتبات الإسلامية الوقفية في حلب، ص٢١٧.

جدول (٩)

بعض المخطوطات النادرة المفقودة من خزانة المولوية

(كانت موجودة في سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م)[١]

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
ديوان شاعر حلب ابن أبي حُصَيْنَة		
نسخة من ديوان أبي الطيب		تاريخ النسخ ٥٣٠هـ
درر الحَبَب في تاريخ حلب	ابن الحنبلي	
عدد كبير من المصاحف المذهبة والربعات المتقنة		
بدائع الأقطار في شرح أوائل المنار	في أصول الفقه الحنفي	
المستغني في شرح المغني	كلاهما لعلَّامة حلب محمد بن يوسف بن يعقوب الأسيري الغزالي (مفتي الديار الحلبية ت١١٩٤هـ)	وهما بخطه
الفرائد الجمانية بشرح القلائد البرهانية (في علم المواريث)	محمد بن حجازي بن برهان الدين الحلبي	
راحة الأرواح في الحشيش والخمر والراح	أحمد الحمامي العلواني الحموي الحلبي	
طريق الهدى	أبو الوفاء بن عمر العرضي الحلبي المؤرخ	
السير والسلوك إلى ملك الملوك	الشيخ قاسم الخاني	

(١) خزائن المخطوطات في حلب، ص٢٤، إعلام النبلاء ٤٨٤/٥ و٣١٥/٦-٤١٨ و٤٧٧.

خزانة دار الحديث (مفقودة: إهمال وسرقة)

كان فيها (٨٠ مخطوطًا) حملتْ عناوينَ في مختلف العلوم وذلك حين إنشائها في (١٠٠٤هـ/١٥٩٥م)، من جملتها مجلدان من (لسان العرب)، ضاعت مخطوطاتها بين الإهمال والسرقة. وثمة مجموعة من المخطوطات أوقفت على هذه الدار من قبل مؤيد الدين إبراهيم بن يوسف[١].

خزانتا تكية الشيخ أبي بكر الوفائي[٢]، والزاوية الوفائية (عُظْمهما المهم مفقود: سرقة وبيع)

كانت هذه التكية موضع اهتمام ولاة حلب وخاصة الأتراك، توالى عليها الشيوخ الوفائية طوال القرون الثلاثة الماضية وكلهم جمعوا لها نفائس المخطوطات حتى غدتْ مركزًا علميًّا مقصودًا من العلماء والمؤلفين. في القرن الحادي عشر الهجري، أُقيمت فيها حجرة واسعة ضمَّت عددًا كبيرًا من ذخائر المخطوطات العربية والفارسية والتركية مما يتعلَّق بالتصوف وعلوم الشريعة. وقد ضاعت معظم هذه الكتب، بل نهبت وبيعت لسماسرة المخطوطات، وبقي من هذه الكتب بقية متواضعة وُضعت في خزانة صغيرة في حجرة ضريح الشيخ[٣].

---

(١) المكتبات الإسلامية الوقفية في حلب، ص٢١٧.

(٢) هو الشيخ أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن علي أبي الوفاء الكريدي الوفائي الصوفي الزاهد الكبير الملقب بالكبريت الأحمر (ت٩٩١هـ) من كبار الأئمة الصوفية الذين كثر مريدوهم. دفن خارج حلب، وأقيم على قبره قبة ما تزال قائمة حتى الآن مع الجامع ومحرابه الرائع. انظر: خزائن المخطوطات في حلب، ص١٩.

(٣) زرت هذه التكية منذ سنوات قليلة، ولم يكن فيها أية مخطوطة.

جدول (١٠)

أهم المخطوطات الباقية في تكية الشيخ أبي بكر الوفائي بحلب[١]

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
أنوار القلوب في جوامع أسرار المحب والمحبوب	القاضي أبو المعالي العزيزي ابن عبد الملك شيذلة	
تفسير البيضاوي	البيضاوي	مجلدة بجلد فاخر جدًا
شرح أسماء الله الحسنىٰ	أبو الحكم عبد السلام ابن عبد الرحمن اللخمي المعروف بابن برجان المراكشي	تاريخ النسخ (٥٧٦هـ) وهو مجلد كبير ضمنه جزآن. كُتِب في طرفه (من كتب الفقير عمر بن عبد الوهاب العرضي الشافعي القادري) وهو مفتي حلب ومؤرخها المشهور
مجموعة في الأدب	بنو الكوراني	

في سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م نُقِلَتْ المخطوطات المتبقية وضُمَّت إلىٰ خزانة المدرسة الخسروية، ثم نُقلتْ جميعًا إلىٰ المكتبة الوقفية التي تأسست في المدرسة الشرفية سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

وأما الزاوية الوفائية[٢] فهي غير التكية الوفائية، وكل واحدة منهما واقعة في مكان مختلف من مدينة حلب، لم يبق إلا القليل من كتبها.

---

(١) إعلام النبلاء ٦/١٣٠ وخزائن المخطوطات في حلب، ص٢٠.

(٢) منسوبة إلىٰ الشيخ أبي الوفاء محمد بن عمر السعدي المشهور بابن خليفة الزكي (ت١٠١٠هـ) وهي مقرٌّ للصوفية السعدية.

جدول (١١)

ما تبقى من مخطوطات الزاوية الوفائية (حتى منتصف الخمسينيات)[١]

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
بغية السامع والقاري بشرح صحيح البخاري	محمد بن عمر السعدي الصوفي	ستة مجلدات لم يبق منها إلا مجلدان
ديوان الشيخ محمد بن عمر السعدي الصوفي		
النفحة الربانية في طريقة المشايخ السعدية		رسالة لطيفة في آداب هذه الطريقة وتاريخ شيوخها

اضمحلت هذه الزاوية ولم يبق منها إلا القليل، نقلت إلى بيت متوليها أحد أبناء البيت الوفائي.

خزانة الزاوية الإخلاصية «البخشية» (معظمها مفقود)

تولَّاها الشيخ حسن بن عبد الله البخشي (ت١١٩٠هـ/١٧٧٦م)، وكان عالمًا فاضلًا وقف عليها مؤلفاته (اثني عشر مؤلَّفًا). في سنة ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م عندما نقلت إلى دار الكتب بلغتْ (١١٩) مخطوطًا، ما لبثت أن أعيدت في العام التالي إلى المكتبة الوقفية، التي احتوتْ سجلاتُها على (١٢٥) مخطوطًا من المكتبة الرفاعية (مع الملحق)[٢]. من مخطوطاتها المهمَّة المفقودة «الكفاية في شرح الهداية».

(١) خزائن المخطوطات في حلب، ص٢١.

(٢) نهر الذهب ٣٠٢/٢، وإعلام النبلاء ٣١٦/٦.

جدول (١٢)

مخطوطات في خزانة الزاوية الإخلاصية كما وردت في وقفيتها[١]

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
مستوفي النصر في فتاوىٰ علماء مصر	الشيخ إبراهيم بن أحمد ابن المنلا الحلبي (ت١٠٣١هـ)	بخط مُصنِّفه
مختصر موضوعات ابن الجوزي	محمد بن أبي بكر بن محمد المارديني (ت٨٣٧هـ) عالم حلبي مشهور	بخط الشيخ أبي ذر البرهان المحدث الحلبي المؤرخ.
مجموعة فيها عدة رسائل		بخط الشيخ محمد بن عمر ابن أبي بكر النصيبي الحلبي (ت ٨٥٧هـ)
البدور الكوامل علىٰ الشمائل تحرير المقال في خلق الأفعال وبهجة الأخيار في شرح حلية المختار		حسن بن عبد الله البخشي

ثم رَفَدها الشيخ محمد أبو الوفا الرفاعي بمؤلَّفاته التي ربت علىٰ العشرين مؤلفًا، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده. وهناك غيرها من النفائس، وقد ضاعت هذه الذخائر مع ما ضاع من نفائس الكتب الحلبية بين الإهمال والنهب والتفريط.

وفي عام (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م) أُحصيت الكتب المتبقية فيها، فبلغ عدد المخطوطات (١١٩) مخطوطًا، نقلت إلىٰ دار الكتب الوطنية، ثم ما لبثت أن أعيدت في العام التالي إلىٰ المكتبة الوقفية في المدرسة الشرفية.

(١) خزائن المخطوطات في حلب، ص٢٢.

خزانة الزاوية الهلالية (مفقودة)

كانت من أغنىٰ خزائن حلب بكتب الصوفية ودواوين الشعر الصوفي العربي والفارسي والتركي[١]. عثر الشيخ راغب الطباخ في خزانة مخطوطات - أحد أحفاد القيِّمين علىٰ الزاوية من أبناء الهلالي - علىٰ أربع عشرة ورقة من ديوان شاعر حلب وأديبها في القرن الحادي عشر الشيخ حسين بن أحمد بن حسن المعروف بابن الجزري (ت١٠٣٣هـ)[٢] وقد استطاع الطباخ بعد ذلك أن يجمع سائر ديوان ابن الجزري الحلبي وينشره.

خزانة المدرسة العثمانية «الرضائية» (معظمها مفقود)

هي من أغنىٰ الخزائن الحلبية، والمخطوطات التي وقفها عثمان باشا الدروكي (والي حلب) (ت١١٥٠هـ) علىٰ هذه الخزانة مُسجَّلَة في وقفية خاصة، وقد جاء في هذه الوقفية «تحفٌ ونوادر جد قيمة»[٣] ازدادت أهمية هذه الخزانة بما أهداه إليها الشيخ المفتي تقي الدين المدرس (ت١٣١٠هـ)، فقد اشترىٰ من بغداد كل ما هو نفيس ونافع من المخطوطات وأرسله إلىٰ حلب، ووقفه علىٰ المدرسة العثمانية[٤]، فبلغ عدد كتبها ما يقارب الـ(٣٠٠٠) مجلد بين مخطوط ومطبوع. وقد ضاع كثير من مخطوطاتها، وأُحصي ما تبقىٰ منها في سنة (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) فبلغ (١٢٥٢) مخطوطًا، نُقلت إلىٰ دار الكتب بمرسوم جمهوري في ذلك الوقت، ثم أُعيدتْ واستقرت في المكتبة الوقفية في العام التالي.

وقد جرىٰ إحصاء (١٦٤٩) مخطوطًا (مع الملحقين) في السجلات

---

(١) خزائن المخطوطات في حلب، ص٣٤.

(٢) إعلام النبلاء، ترجمة الشيخ الهلالي.

(٣) خزائن المخطوطات في حلب، ص٢٧.

(٤) إعلام النبلاء ٤٤١/٧.

الرسمية، على حين كان عددها في السالنامة المذكورة (١٢٤٢) مخطوطًا[١]، وذكر سامي الدهان أنها (١٥٠٠) مخطوط[٢]، وهو أقرب إلى الرقم الحالي، مما يرجح زيادتها بين عامي ١٣٢٦هـ و١٣٥٩هـ.

جدول (١٣)

أهم مخطوطات خزانة المدرسة العثمانية[٣]

العنوان	المؤلِّف
عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ	السمين الحلبي النحوي
المقدمة السنية	العلَّامة الصفدي
الحدائق الأنسية في الحقائق الأندلسية	
الدر الثمين في أسماء البنات والبنين	
تفسير البيضاوي	نسخة نفيسة كتبت بقلم واحد ومذهبة (مفقودة)[٤]
مختصر وفيات الأعيان	ابن الأثير الجزري[٥]
عوارف المعارف	السهروردي نسخ في زمن المؤلف وعليه خطه وإجازة منه
شرح الشفاء	القاضي عياض (٣ مجلدات) نُسِخ (١١٤١هـ) نقلًا من نسخة المؤلف

---

(١) حلب في مئة عام، ٢/٥٩، ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ٣/٢٠٢، نقلًا عن مجلة الجامعة الإسلامية عدد ربيع الأول ١٣٥٩/١٩٤٠.

(٣) نهر الذهب ١/١٤٣.

(٤) إعلام النبلاء ٣/٣٢٥.

(٥) المخطوطات التالية (مختصر وفيات الأعيان، وعوارف المعارف، وشرح الشفاء). هذه المخطوطات الثلاث ذكر طلس (وحده) أنه شاهدها حين زار هذه الخزانة في حدود خمسينيات القرن الماضي. خزائن المخطوطات، ص٢٨. أما الطباخ فلم يذكرها.

وقد ضاعت معظم كتب هذه المكتبة العظيمة بسبب النهب والإهمال والتقصير والغفلة. وفي سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م بلغ عدد مخطوطاتها (١٢٥٢ مخطوطًا)، نقلت إلى دار الكتب الوطنية[١]، ثمّ ما لبثت أن أعيدت في العام التالي إلى مكتبة الأوقاف العامة في المدرسة الشرفية[٢].

خزانة المدرسة الكواكبية وجامع أبي يحيىٰ الكواكبي[٣] (معظمها مفقود)

خزانة قَيِّمَة بلغت مخطوطاتها (٣٠٠٠) مخطوط، عدد منها من مؤلَّفات أبناء عائلة الكواكبي. ومنهم محمد الكواكبي الحنفي مفتي الديار الحلبية في القرن العاشر (ت١٠٩٦هـ) وقد كانت له مؤلفاتٌ قيِّمة (تُعَدُّ الآن من المخطوطات المفقودة) تردُ في الجدول التالي:

جدول (١٤)

مخطوطات مؤلفات محمد الكواكبي[٤] الحلبي المفقودة

التي وضعها هو نفسه في جامع جَدِّه

نظم الوقاية	في فروع الفقه الحنفي وشرحه
نظم المنار	في أصول الفقه الحنفي وشرحه
حواش علىٰ (التفسير للبيضاوي)	
شرح علىٰ (المواقف في الكلام)	

(١) تم هذا النقل بأمر من رئيس الجمهورية حسني الزعيم في ذلك الوقت.

(٢) المكتبات الإسلامية الوقفية في حلب، ص٢١٩ وأيضًا: المكتبة الوقفية بين عراقة الماضي وتطلعات المستقبل. ندوة (دور المكتبات والتوثيق) ص٢٧-٤٩.

(٣) الشيخ أبو يحيىٰ محمد بن إبراهيم الرجي الكواكبي البيري الحنفي (ت٨٩٧هـ) وهو أول مَن قدم حلب من هذه الأسرة. أضحىٰ مجلسه مجمع العامة والخاصة. إعلام النبلاء ٥/٣٣٦، ودور كتب فلسطين، ص١٦.

(٤) يقول الطباخ في ما فعله بمؤلَّفات محمد الكواكبي: «وقد وفقني الله بطبع شرحيه علىٰ منظومتيه في الفروع والأصول»، في مصر في مجلدين، وذلك سنة ١٣٢٢هـ.

ولابن محمد الكواكبي (أحمد الكواكبي - ت١١٢٤هـ) حاشيتان على شرحي والده، عثر الشيخ راغب الطباخ على الحاشية الأصولية بين كتب ملقاة في هذه الخزانة داخل ضريح أبي يحيى، وسماها مؤلفها - أي أحمد الكواكبي- (المباحث العجائب على شرح منظومة الكواكب)[١].

ضاعت كثير من مخطوطات هذه الخزانة إلا أنه بقي منها (حتى عام ١٩٥٥) ما هو موضح في الجدول التالي:

جدول (١٥)

ما بقي من مخطوطات خزانة الكواكبية

حتى منتصف الخمسينيات

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
كشف المروط عن محاسن الشروط	حسين بن عمر بن حبيب الحلبي صاحب نسيم الصبا (ت٧٧٨هـ) أديب حلب وكاتبها في القرن الثامن	كتاب مهم، ذكر عنه في كشف الظنون «أورد فيه جملة من السجلات على اصطلاح أهل مصر». ذكر الطباخ أيضًا «وجدتُ نسخة منه في جامع أبي يحيى في محلَّة الجلوم داخل القبة التي فيها ضريح الشيخ محمد الكواكبي، ويوجد من الكتاب نسخة في المكتبة السلطانية بمصر»[٢]
المقتفى من سيرة المصطفى		تاريخ نسخها ٨٤١هـ/١٤٣٧م

(١) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٧، وانظر: إعلام النبلاء ٣٨٦/٦.

(٢) إعلام النبلاء ٧/٥ و٣٨٦/٦.

جدول (١٦)

مخطوطات من خزانة المدرسة الكواكبية

كما وردت في كتاب وقفيتها[1]

العنوان	المؤلِّف
فتاوىٰ	أبو السعود الكواكبي
التعليقات الكواكبية علىٰ سورة (طسم)	آل الكواكبي
ثلاثة مجاميع (بخط المترجم أحمد بن أبي السعود وحاشية له)	أبو السعود الكواكبي
حاشيتان علىٰ (العصام والسعدي) في التفسير شرح منظومتي الكواكبي في الفقه والأصول (طبعهما الطباخ في مصر معًا في مجلدين)	محمد بن الحسن الكواكبي
حاشية للابن (أحمد أفندي الكواكبي) علىٰ شرح والده لمنظومته الأصولية	أحمد أفندي الكواكبي
رحلة إلىٰ الآستانة (نظمًا) و(مجموعة رسائل أدبية)	
ذيل في تراجم الرجال	محمد أفندي الكواكبي

أما مكتبة المدرسة الكواكبية فقد احتوت علىٰ ما يقارب ثلاثة آلاف مخطوط، ضاع معظمها، ومن بينها مؤلَّفاتُ الكواكبية، وقد تبقىٰ منها فتاوىٰ أبي السعود التي آلت إلىٰ المكتبة الخسروية، ثم نُقلت إلىٰ المدرسة الشرفية (دار الكتب الإسلامية) مع البقية الباقية[2].

«وقد تسلط عليها من لا يعرف لها قيمة، ومدّ يده لها دون ممانع ولا معارض، فكان يهدي منها للقضاة والكبراء الذين يأتون حلب، وبقي منها بقية كانت موضوعة منذ عشرين سنة في خزانة داخل القبة التي فيها

(١) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٨-١٩، وإعلام النبلاء ١١٣/٧.

(٢) انظر: إعلام النبلاء ١١٠/٧.

ضريح الشيخ أبي يحيىٰ، ولا بدَّ أنها تعطلت بتاتًا من الرطوبة والعفونة ولا سائل عنها، وإلىٰ الله المشتكىٰ»[١].

ضاعت هذه الخزانة بمخطوطاتها النوعية مثل كثير من الخزائن التي فُقدت في هذه الحقبة نتيجة الإهمال والتراخي والأمية في التعامل مع هذه الذخائر الوطنية العظمىٰ، ولم يبق منها إلا القليل نُقل إلىٰ مكتبة المدرسة الخسروية سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢١م، ثم نُقل معها إلىٰ مكتبة دائرة الأوقاف العامة في المدرسة الشرفية سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

خزانة المدرسة الأحمدية (إهمال وتجميد.. أُغلقت وتسلَّط عليها بعض التجار!)

من أعظم الخزائن الحلبية في عدد مخطوطاتها، ونفاسة مجلداتها. أنشأها القاضي أحمد بن طه زاده (ت١١٧٧هـ/١٧٦٣م)، تولىٰ القضاء في القدس وبغداد، وكان في أثناء وجوده فيهما يتخيَّر نفائس الكتب ويشتريها ويستنسخ الكثير منها، وعندما عاد إلىٰ حلب بنىٰ مدرسته فيها سنة (١١٦٥هـ/١٧٥١م) ووقف عليها كلّ ما اقتناه من الكتب النفيسة والآلات الفلكية النادرة. تبلغ مخطوطات الأحمدية ثلاثة آلاف مجلد، منها عدة مجلدات بخط القاضي نفسه، وكان خطه جميلًا، كما قام هو نفسُهُ بتصحيح الكثير مما استنسخ له، وصَنَّفَ (فهرست) لمكتبته، حَرَّر فيه أسماء جميع الكتب التي وقفها علىٰ مدرسته. وجعل في خزانتها نوادرَ المخطوطات والآلات الفلكية والتحف المخطوطية البارعة بتجليدها وتذهيبها وتنميقها. وقد بقيت هذه الخزانة قائمة بجميع مخطوطاتها تقريبًا حتىٰ بدايات القرن العشرين[٢].

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، من مقال له نشره في جريدة الفرات ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.

(٢) يصف الشيخ محمد راغب الطباخ حال المكتبة في زمانه فيقول: «هذه المكتبة أعظم مكتبة في الشهباء، وقد حفظتْها لنا أيدي الزمان ولم يفقد منها سوىٰ بضعة كتب، منها كتاب (الأنساب)».

والرائد النهضوي المفكر عبد الرحمن الكواكبي[1] الذي قام أجداده على بعض هذه الخزائن منذ مئات السنين، يسجل شهادته عن هذه الخزانة في صحيفته التي أنشأها في حلب (جريدة الفرات) يقول: «أدركت بقايا هذه المكتبة العظيمة موجودة في غرفة صغيرة معتمة رطبة على يسار الداخل إلى المدرسة قبل أن يصعد إلى صحنها البديع، ومفتاحُها بيد شيخنا الشيخ عبد الرحمن زين العابدين - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - ثمَّ أُغلقت المدرسة وتسلط عليها بعض التجار، ولا أحد يدري ما حلَّ بالمكتبة - ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2]. هذه شهادة مهمة بشأن التراث المخطوط في حلب تعود إلى ما يزيد على مئة سنة.

جدول (١٧)

مخطوطات نادرة من الخزانة الأحمدية[3]

العنوان	المؤلِّف
التفسير المهمل	الفيض الهندي
دُرَر الحَبَب في تاريخ حلب	ابن خطيب الناصرية (مجلدان ضخمان ثانيهما مضطرب)
تاريخ ابن كثير	(٣ مجلدات)
تاريخ الإسلام الكبير	الحافظ الذهبي منه خمس مجلدات (ناقص)

(١) عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٦-١٣٢٠هـ / ١٨٤٩-١٩٠٢م) صحافي، مفكر نهضوي، ولد في حلب، وتوفي في القاهرة. أنشأ في حلب صحيفتي (الشهباء) ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، و(الاعتدال) ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م لكنهما أغلقتا. له الكتابان الشهيران «طبائع الاستبداد» و«أم القرى». نشر مقالات «طبائع الاستبداد» في صحيفة المؤيد المصرية.

(٢) المقال السابق للشيخ عبد الرحمن الكواكبي.

(٣) نهر الذهب ١/١٤٣، المخطوطات وخزائنها في حلب، ص٢٩.

العنوان	المؤلِّف
مرآة الزمان	سبط ابن الجوزي (مجلد واحد)
مختصر تاريخ الإسلام الكبير	الحافظ الذهبي اختصره ابن المنلا (وهو مؤرخ حلبي) في سبع مجلدات ضخام (نسخة فريدة في العالم)
مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام	شهاب الدين المقدسي
أنوار الحلَك على شرح المنار لابن ملك[1]	محمد بن إبراهيم الحنبلي مؤرخ حلب وعلامتها صاحب التاريخ المشهور في حلب «درر الحبب»
شرح هياكل النور	السهروردي (نسختان نفيستان جدًّا)
المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا	إبراهيم بن محمد بن خليل البرهان الحلبي (ت ٨٤١هـ)
الوافي بالوفيات	العلَّامة الصفدي (يوجد منه ٤ مجلدات)
العبر في أسماء من غبر	ابن حجر (يوجد منه مجلدة)
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ	السخاوي
ذيل مرآة الزمان	قطب الدين اليونيني
عيون التواريخ	ابن شاكر (يوجد سبع مجلدات منه)

---

(١) بدءًا من هذا المخطوط إلى نهاية الجدول، هذه المخطوطات رآها الدكتور أسعد طلس في حدود الخمسينيات من القرن الماضي حين قام بإعداد فهرس لهذه الخزانة. خزائن الكتب في حلب، ص٣٠-٣٢.

المؤلِّف	العنوان
العلَّامة القرشي	طبقات الحنفية الكبرىٰ
العلَّامة الشيخ مصطفىٰ اللطيفي الحلبي	الرحلة الكبرىٰ
ابن عرب شاه (نسخة مكتوبة في زمن المصنف)	عجائب المقدور في أخبار تيمور
البديعي	الصبح المنبي عن حيثية المتنبي
جلال الدين السيوطي (نسخة حسنة مكتوبة في زمن المصنف)	بغية الوعاة
السخاوي	الضوء اللامع
ابن قدامة المقدسي	طبقات الحفاظ
محمد بن عبد الرحمن العليمي	الدر المنضد في تراجم رجال مسند الإمام أحمد
ابن خلكان (نسخة قديمة فيها زيادات عن المطبوعة)	وفيات الأعيان
ابن إياس (نسخة قديمة فيها زيادات عن المطبوعة)	تاريخ الديار المصرية
الإسنوي	طبقات الشافعية

وخزانة الأحمدية من أقل الخزائن ضياعًا، ومن أهم ما فُقِد منها (كتاب بحر الأنساب) ويروي لنا الطباخ (حادثة فقدانه) يقول: «من نفائس الكتب كان أرسله المتولي السابق الحاج عبد القادر الحلبي إلىٰ الشيخ أبي الهدىٰ أفندي الصيادي المشهور إلىٰ الآستانة لينسخه ويردَّه إلىٰ المكتبة ولم يرده»[1].

وفي سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م بلغ عدد المخطوطات في (الأحمدية) (١٤٧٤) مخطوطًا فقط، نُقلت إلىٰ مكتبة الأوقاف الإسلامية العامة في المدرسة

(١) إعلام النبلاء ٧/٧٦.

الشرفية. وقد جاء في سالنامة ولاية حلب لعام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م أن عدد الكتب في المكتبة الأحمدية هو (١٤٦٧)[1]، وهو قريب من الرقم المثبت في المحضر الرسمي عند عودتها من دار الكتب إلى الشرفية، وهو (١٤٧٤) مخطوطًا، وهذا لا يتنافى مع رقم ثلاثة آلاف الذي ذكره الطباخ؛ لأنه ذكر عدد المجلدات، وليس الكتب، وهو الرقم الذي ذكره سامي الدهان[2]. ويبلغ عددها في السجلات (١٤٨٦) مخطوطًا.

وقد نظم لها الدكتور محمد أسعد طلس فهرسًا[3]، ومن غير المعلوم إن كان قد نشر؟

خزانة المدرسة المنصورية[4] (فُقدتْ في خمسينيات القرن الماضي)

كانت هذه الخزانة تحت القبة الغربية للمدرسة، بقي من مخطوطاتها نحو (٧٠) مخطوطًا، بعد تعرُّض معظم مخزونها للتلف من الإهمال وعدم إدراك قيمة كنوزها، وحتى هذا العدد القليل نُقل نصفُه في عملية النقل العامة للمخطوطات من خزائن المدينة عام ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م إلى المدرسة الشرفية، يقول الطباخ: «ولم يزل في المدرسة المنصورية في خزانة القبة الشرقية نحو (٤٠) مخطوطًا، أنفسها «الشرح الكبير للعلّامة المناوي على الجامع الصغير»، والنسخة في ثلاثة مجلدات، و«تفهيم السامع في شرح جمع

---

(١) حلب في مئة عام، ٢/٥٩، ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ٣/٢٠٢، نقلًا عن مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ربيع الأول ١٣٥٩/١٩٤٠.

(٣) خزائن المخطوطات في حلب، ص٣٠.

(٤) كانت وقفية هذه المدرسة محفوظة عند أحمد المنصوري حفيد مؤسس المدرسة (مصطفى بن منصور السرميني الحلبي) وتاريخ الوقفية (٢١ من ذي الحجة ١٢٠٣هـ)، وجاء فيها «.. وجعلتُ القبة الغربية التي في الإيوان محلًا لحفظ الكتب التي سأقفها على مدرسي هذه المدرسة وطلبتها» خزائن الكتب في حلب، ص٣٢.

الجوامع» لأحمد بن محمد السفيري الحلبي الأسدي، بخط مؤلفه، وهو المسودة؛ حُرِّر سنة ٨٦٩هـ بمدرسة الشيخ أبي عمر بصالحية دمشق، و«رحمة الأمة في اختلاف الأئمة» لمحمد بن زين الدين القرشي، و«الفتح الظاهر والنصر الباهر» في فنِّ الرمي بالمدفع والقنبرة، للشيخ محمد العطار الدمشقي، وهو في كراستين، و«شرح العلّامة الفيروزابادي لمثلث قُطْرب»، في كراسة»[١].

جدول (١٨)

ما تبقى من مخطوطات الخزانة المنصورية
حتى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين
(فُقِدَتْ نحو خمسينيات القرن الماضي)[٢]

العنوان	المؤلِّف
الشرح الكبير على الجامع الصغير	المناوي (٣ مجلدات)
تفهيم السامع في شرح جمع الجوامع	أحمد بن محمد السفيري الحلبي الأسدي (بخط مؤلفه) مسودة كتبها سنة (٨٦٩هـ)
رحمة الأمة في اختلاف الأئمة	محمد بن زين الدين القرشي
(الفتح الظاهر والنصر الباهر) في فنِّ الرمي بالمدفع والقنبرة	محمد العطار الدمشقي
شرح الفيروزابادي على مثلثات قُطْرب	في اللغة

يُلاحظ أنه في عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م نُقلت مخطوطات معظم الخزائن الوقفية إلى خزانة المدرسة الشرفية، لكن هذا النقل لم يكن كاملًا لجميع المخطوطات، فهناك خزائن لم تُنْقل جميع مخطوطاتها!

(١) إعلام النبلاء ١٣٨/٧- ١٤٢.

(٢) يذكر الدكتور طلس بأنه في زمانه لم يعد لها أثر (تاريخ المقال ١٩٥٥) خزائن المخطوطات، ص٣٤.

خزانة المدرسة الطرنطائية

اتخذ منها الشيخ محيي الدين البادنجكي (ت١٣٢٧هـ)، زاوية ومدرسة له يقرأ فيها الفقه والنحو على طلابه، وأنشأ فيها خزانة للمخطوطات، أعتقد أنه ما زال منها بقية عند أحفاده من بني البادنجكي. ويمكن أن نلاحظ أن بعض الخزائن الوقفية في حلب ارتبط بعائلات كانت قائمة على أمرها، ولعلها ورثت البقية الباقية من مخطوطاتها.

لقد تناثرت مخطوطات هذه الخزائن في أثناء الفتن والأزمات التي أصابت حلب منذ القرن السادس الهجري إلى دخول السلطان سليم العثماني حلب بعد انتصاره على المماليك في مرج دابق شمالي حلب. «وقد ظلت النكبات تتوالى على الخزائن الحلبية إلى أن أدركناها في فجر هذا القرن هزيلةً منهوبة»[١].

خزانة المدرسة الإسماعيلية

بلغ عدد مخطوطاتها نحو الخمسين، ضاع معظمها، ونُقل القليل مما تبقى منها في أول عملية نقل للمخطوطات إلى خزانة المدرسة الخسروية ١٣٤٠هـ/١٩٢١م ثم نقلت جميعًا إلى المكتبة الشرفية في عملية النقل العامة للمخطوطات التي جرت عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

---

(١) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٢.

جدول (١٩)

أهم مخطوطات الخزانة الإسماعيلية[١]

العنوان	المؤلِّف
شرح العيني على البخاري (٦ مجلدات)	العيني
المواهب اللدنية (مجلد واحد)	القسطلاني
السيرة الحلبية والمفاتيح الدرية (مجلدان)	الشراباتي الحلبي

خزانة المدرسة القرناصية (مفقودة بناءً ومخطوطاتٍ)

خزانة المدرسة البهائية «الصلاحية» (مفقودة بالكامل)

في سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م وقف بهاء الدين القدسي عليها (٧٠ مخطوطًا) كانت موضوعة في إحدى غرف المدرسة، أكلتها الرطوبة والإهمال، ثم اختفت ولا وجود لها الآن.

خزانة جامع الأحمدي (نُقِلت معظم مخطوطاتها إلى مكتبة الحرم المكي)

في سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م وُقف على المدرسة خزانة من المخطوطات المتنوعة، ثم خُرِّبت المدرسة والزاوية، ونُقلت المخطوطات لمكتبة الحرم المكي. ما تبقى من مخطوطاتها في عام ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م نحو (١٧٦) مخطوطًا، نُقِل إلى دار الكتب الوطنية في حلب، ثم أعيد في العام التالي إلى مكتبة الأوقاف العامة في المدرسة الشرفية. ويوجد الآن في السجلات الرسمية للمكتبة الوقفية مئتا مخطوط مصدرها من المدرسة الصديقية (مع الملحق). ومن مخطوطاتها المفقودة: «إحياء مختصر العلوم»[٢].

(١) المخطوطات في مكتبات الأوقاف ٣/٣٤٩.

(٢) نهر الذهب ٢/٢٥١، ٢٥٢.

خزانة الجامع الأموي الكبير (التدمير التاريخي - نفائسُها مفقودة)

أقدم خزائن حلب، كانت تضم نفائس المخطوطات في الدين والعربية والأدب والتاريخ وعلوم الحديث وكتبه. وقد ازدادتْ واغتنتْ أكثر في الحقبة الحمدانية، فقد ذكر الذهبي في تاريخ الإسلام «كان بجامع حلب خزانة للكتب، وكان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة بن حمدان»[1].

كانت أغنى الخزائن بمخطوطاتها في مدينة حلب، لم يكن الجامع جامعًا فحسب، بل مكان للحوار والتعلم، أعمدتُهُ وأروقته غدَتْ مجالسَ وحلقاتٍ للعلم والفكر، ومن ثَمَّ كانت خزانة مخطوطاته مهمة ونفيسة، بلغ عددها نحو الخمسين ألف مجلَّد بحسب المؤرخين، وقد تعرَّضت للدمار في الحروب التي عرفتها المدينة، خاصةً في اجتياح تيمورلنك الذي دمر مخطوطات الجامع عن آخرها. وقد كان لهذه الخزانة المهمة قيِّمون يشرفون عليها، ذكر لنا التاريخ منهم أبا المحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب أبي الحسن الحلبي النحوي[2] الذي صُلب في مصر في سنة ٤٦٠هـ ، وأحرقت خزانة الكتب التي في الجامع، وكان فيها عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة[3].

ويبدو أنَّ هذه الخزانة ظلَّتْ تتلاعب بها الأيدي بعد انقراض الدولتين الحمدانية والمرداسية، ولكنها بقيتْ عامرة على أية حال، وبمجيء الأيوبيين يُعاد تأسيسها مع باقي خزائن بلاد الشام ومصر. ويرى الدكتور

---

(١) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٢، عن الذهبي في تاريخ الإسلام.

(٢) ذكره الذهبي في تاريخه فقال: «كان من كبار النحاة شيعيًّا، صنَّف كتابًا في تعليل قراءة عاصم، وتولى خزانة الكتب بحلب لسيف الدولة... فحمل إلى مصر فصلب في حدود الستين وأربعمائة..»، المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٢، عن الذهبي، وبغية الوعاة، ص٢٠٩.

(٣) إعلام النبلاء ١٩٨/٤.

أسعد طلس أنَّ خزانة الجامع الأموي ظلت قائمة طوال العصور المتأخرة لأنها وُجِدَتْ في كثير من (الوقفيات الحلبية) التي وقفها أصحابها على الجامع[(١)]. وفي القرون الأخيرة أصابها ما أصاب بقية الخزائن الحلبية من الإهمال والضياع والنهب.

في سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م وقف عليها محمود أفندي الجزار مجموعة من نفائس المخطوطات تلك التي ورثها عن والده أحمد آغا الجزار، ويبلغ عددها (٨٧٨) كتابًا مخطوطًا ومطبوعًا، بالإضافة إلى مجموعة من القطع والآلات الفلكية النادرة، عددها ٣٤ قطعة، وجَعل القيم على هذه المكتبة الشيخَ أحمد المكتبي. وكانت موضوعة في (القاعة الشرقية) من الجامع، وهي الموضع القديم لخزانة المخطوطات[(٢)]. ثم نَقَلَتْ إدارةُ الأوقاف هذه الخزانة إلى الخسروية سنة ١٣٤١هـ، ثم إلى المدرسة الشرفية ١٣٤٥هـ[(٣)]. انظر الجدول التالي:

جدول (٢٠)

نفائس مخطوطات الجامع الأموي بحلب (مفقودة)

الموضوع	العنوان والمؤلِّف
في الحديث	مشارق الأنوار للصنعاني، والحلية لأبي نعيم
في الفقه	الوافي للنسفي، والخراج لأبي يوسف
في التصوف	عوارف المعارف للسهروردي
في التاريخ والأدب	طبقات الأولياء للسخاوي، وروض الأنس للنيسابوري
في الشعر	ديوان الجعبري

(١) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٣.

(٢) المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٣، وانظر أيضًا لتحديد الخزانة من الجامع: ما ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان حين ترجم للمسعودي تاج الدين محمد الخراساني.

(٣) إعلام النبلاء ٧/٤٢٨-٤٣١.

وثمة مفقودات كثيرة من هذه الخزانة، ولنا أن نتتبع ما ذكره أحمد تيمور باشا: «إن في دار الكتب المصرية نسخة شمسية من هيئة أشكال الأرض من طولها والعرض بالمصورات مما أُلف لسيف الدولة بن حمدان، وهي منقولة من خزانة طوب قبوسراي بالآستانة»[1].

وتذكر كتب التاريخ أن مكتبة الجامع الكبير كانت تحتوي على نحو خمسين ألفًا من المجلدات، تعرضت للنهب والتدمير في الغزو والنكبات التي مرَّت على حلب.

جدول (٢١)

أهم مخطوطات خزانة الجامع الأموي الكبير في حلب

العنوان	المؤلِّف
مشارق الأنوار	الصاغاني
الحلية (جزآن)	أبو نعيم
الحلية الصغيرة	أبو نعيم
العمدة	الإمام المقدسي
سيرة ابن سيد الناس	ابن سيد الناس
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الهيثمي
مجمع البحرين (فقه) ٣ أجزاء	ابن الساعاتي الحنفي
الوافي	النسفي
الخراج	أبو يوسف
التمهيد	الإسنوي
رحمة الأمة في اختلاف الأئمة	القرشي
طبقات الشافعية	الإسنوي

(١) أحمد تيمور باشا، مجلة الهلال المصرية، مج٤، المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٢.

العنوان	المؤلِّف
طبقات الأولياء	السخاوي
سبائك الذهب في أنساب العرب	البغدادي السويدي
شرح اللباب	ابن هشام
مخطوطات علمية في الهيئة والفلك (عدد كبير) وآلات فلكية متنوعة كالربع المجيب والمقنطر وأنواع الاصطرلابات والكرات[1]	

نُقلت مخطوطات الخزانة المهمَّة جدًّا إلىٰ المدرسة الخسروية سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢١م، ثم نُقلت مع باقي خزائن حلب إلىٰ خزانة المدرسة الشرفية عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

خزانة المدرسة الخسروية

كانت خزانتها حافلة بنفائس المخطوطات حتىٰ وقعت الزلزلة العظمىٰ في حلب (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) فتصدَّعت المدرسة وتبعثرت مخطوطاتها، وخضعت بعد ذلك لعدة ترميمات ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م و١٣٣٠هـ/١٩١١م. تُعد أولىٰ المدارس التي أُنشئت في حلب في العهد العثماني، اهتمَّ بأمرها مدير الأوقاف يحيىٰ الكيالي، فأعاد ترميمها، ووضع فيها خزائن للمخطوطات سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م، وهي التي جُمِعَتْ من خزائن المدارس المهملة وخزانة الجامع الأموي الكبير، بالإضافة إلىٰ ما أهداه لها السيد مرعي باشا الملاح حاكم دولة حلب العام[2] من المخطوطات، وسُميتْ بدار الكتب الإسلامية. بلغتْ مخطوطاتُها إذ ذاك (٤٠٠٠) مخطوط.

---

(١) انظر: المخطوطات وخزائنها في حلب، المكتبات في حلب لسلمان قطاية.

(٢) تفصيل ذلك في البحثين السابقين.

جدول (٢٢)

الخزائن التي نُقلت إلى خزانة المدرسة الخسروية

(١٣٣٨هـ/١٩١٩م)

خزانة التكية المولوية
خزانة الجمع الأموي الكبير + خزانة بني الجزار
خزانة المدرسة الكواكبية
خزانة الزاوية الوفائية
خزانة عائلة الجابري

ثم جُمع في هذه الخزانة ما تبقىٰ من مخطوطات عدد من خزائن المساجد؛ إذ تعرَّض كثير منها للتلف والضياع والنهب، وذلك بين عامي ١٣٣٩ و١٣٤١هـ/١٩٢٠ و١٩٢٢م، وهي: مكتبة التكية المولوية، ومكتبة الجامع الكبير، وفيها ما تبقىٰ من مكتبة بني الجزار، ومكتبة المدرسة الكواكبية، ومكتبة الزاوية الوفائية، ومكتبة الجابري. وسميت بدار الكتب للأوقاف الإسلامية، ثم نُقلت محتويات هذه المكتبة جميعها إلىٰ المدرسة الشرفية عند افتتاحها سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م[١].

وقد جرىٰ إحصاء (١٠١٢) مخطوطًا من الخسروية والمولوية معًا (مع الملحقين)، وهو يزيد قليلًا علىٰ العدد المثبت في محضر التسلُّم عند عودتها من دار الكتب، وهو (٩٢٥) كتابًا، في حين كان عدد مخطوطات المولوية فقط في السالنامة المذكورة (١٢٢٨) مخطوطًا[٢]، وذكر سامي الدهان أن عدد كتب المولوية (١١٠٠) مجلد بين مخطوط ومطبوع[٣]، مما يدل علىٰ ضياع

---

(١) إعلام النبلاء ٣/١٥٧- ١٦٣.

(٢) حلب في مئة عام، ٢/٥٩، ٦٠.

(٣) المرجع السابق، ٣/٢٠٢، نقلًا عن مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ربيع الأول ١٣٥٩/١٩٤٠.

الكثير من هذه المخطوطات. ومن مخطوطاتها المفقودة: تحفة الملوك، وتفسير حقائق القرآن.

وفي سنة ١٣٤٥هـ نُقلت هذه المكتبة بكلِّ محتوياتها إلى مكتبة الأوقاف العامة في المدرسة الشرفية[١] (دار كتب الأوقاف الإسلامية). والمدرسة الشرفية أو الزَّجَّاجية (لأنها بُنيت في سوق الزَّجَّاجين) وهي أول مدرسة بُنيت في حلب[٢]. ويبدو أنَّ القيِّم على شؤونها الشيخ محمد علي الكحال - في أواسط الخمسينيات - كان عاكفًا على وضع فهرس لمخطوطات الخزانة.. ولعله لم يتمَّه ولم ينشره[٣].

وبوصف حلب مدينة «كوسموبوليتية»[٤] منذ القِدَم حتى الآن، فقد زخرتْ خزائنُ كنائسها وأديرتها بمخطوطات مهمة عربية وغير عربية، فكان هناك مخطوطات سريانية ويونانية. أهم شخصيتين من السريان اهتمتا بالمخطوطات العربية والسريانية في الكنائس كان: البطريرك أفرام برصوم والمطران يوحنا دولباني، الأول وضع فهارس لمخطوطات كنائس طور عبدين وبازبدي ودير متى والبطريركية وماردين والرها وخربوط

---

(١) المكتبة الوقفية في حلب بين عراقة الماضي وتطلعات المستقبل، ص٣١-٣٧، والمكتبات الوقفية الإسلامية في حلب، ص٢١٧-٢٢٧.

(٢) بناها شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن المشهور بابن العجمي الحلبي (ت٥٦١هـ) درس في المدرسة النظامية ببغداد، وحين رجع إلى حلب أراد إنشاء مدرسة في حلب على نمط (النظامية) فكانت (الشرفية). انظر: إعلام النبلاء ٤/٢٥٠.

(٣) يقول طلس: «حدثني القيم على شؤونها الشيخ محمد علي الكحال أنه عاكف على وضع فهرس لهذه المخطوطات أعانه الله على إتمامه ونشره»، المخطوطات وخزائنها في حلب، ص١٦.

(٤) تعد حلب مدينة «كوسموبوليتية»، ففيها التعددية الإثنية والدينية والمذهبية في تعايش تاريخي مستمر أنضجتْهُ الطبيعةُ التجارية للمدينة والمجتمع.

وكركر وحلب وحمص وقراها، وهذا الفهرس ما يزال مخطوطًا ويحتاج إلىٰ عناية ليمكن طبعه.

أما المطران يوحنا دولباني فقد وصف في ثلاثة مجلدات أهم المخطوطات التي رآها في أديرة السريان مثل: دير الزعفران، دير مار مرقص... وغيرها، طُبعت هذه المجلدات في مدينة حلب باللغة السُّريانية والعربية. وقد اهتم المستشرقون كثيرًا بمعرفة محتويات هذه المجلدات(١).

المكتبة الوقفية...
المآل قبل الأخير للمخطوطات الحلبية

وكما حدث في دمشق حين قام النهضويون وعلىٰ رأسهم الشيخ طاهر الجزائري(٢) بجمع ما تبقىٰ من المخطوطات في المدينة، فإنَّ نهضويي حلب (يحيىٰ الكيالي) مدير الأوقاف في ذلك العصر والشيخ محمد راغب الطبّاخ، رأيا أنه من الأفضل جمع المخطوطات الموجودة في كلِّ المدارس والزوايا والتكايا والمساجد في مكان واحد؛ ليكون أدعىٰ للحفاظ عليها، وليسهل

(١) دور المكتبات في اللقاء الفكري الإسلامي المسيحي، ص٥٤-٥٥.

(٢) طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني المشهور بالجزائري. هاجر والده من الجزائر إلىٰ دمشق سنة (١٢٦٣هـ - ١٨٤٧م) من بيت علم وشرف، تولىٰ قضاء المالكية، فقد كان فقيهها في دمشق ومفتيها في الشام. وُلد في دمشق ١٨٥٢م، وأتقن عدة لغات، منها الفرنسية والفارسية و(القبائلية البربرية) لغة موطنه الأصلي. كان خبيرًا بالمخطوطات، عرف طبقات المؤلفين وتراجم الرجال وأماكن المخطوطات والنسخ المتفرقة منها في الخزائن الشرقية والغربية. عاد إلىٰ دمشق بعد قيام الدولة العربية ١٩١٩، فعينته الحكومة العربية مديرًا عامًا لدار الكتب الوطنية. له عدد من الكتب المطبوعة، ومخطوط هو تفسيره الكبير (٤ مجلدات) توفي ١٣٣٨هـ/١٩٢٠م. دفن في سفح جبل قاسيون بدمشق. عن: فهرس مجاميع المدرسة العمرية في دار الكتب الظاهرية.

تناولها والاطلاع عليها من قبل المطالعين والباحثين والمستفيدين. واختاروا لها مكانا المدرسة الشرفية، وكان سبب اختيارهم هذه المدرسة لتكون مقرًا لهذه المكتبة العامة هو الهيبة العظيمة لمكتبتها التاريخية ووقْعُها في نفوس العلماء وطلبة العلم من جهة، ولكونها تتوسط المدينة القديمة، وتجاور الجامع الأموي الكبير من جهة أخرىٰ.

بلغ مجموع الكتب التي ضمتها هذه المكتبة نحو اثني عشر ألف كتاب بين مخطوط ومطبوع.

جدول (٢٣)

الخزائن التي جُمِعَتْ في خزانة المدرسة الشرفية

خزانة المدرسة الخسروية بما تجمع فيها من خزائن سابقة
نصف مخطوطات خزانة المدرسة المنصورية
بقايا مخططوطات المدرسة الإسماعيلية
بقايا خزانة جامع السكاكيني
مخطوطات تبرع بها محمد مرعي الملاح
لوحات زيتية أثرية نادرة تبرع بها محمد مرعي الملاح

كانت المكتبة الشرفية آخرَ خزانة مخطوطات في حلب، افتُتحت سنة (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م). وبحسب الإحصاء الأخير كان في السجلات الرسمية الحالية (٢٨٤٦) مخطوطًا من مخطوطات المكتبة الشرفية (مع الملحقين)، ويعد هذا العدد أكثر من الذي أُثبت في محضر التسلُّم عند عودتها إلىٰ الشرفية، وهو (١١٢٢) مخطوطًا، مما يدل علىٰ أنه ازداد عددها في ما بعد. أما العدد الكلي للكتب بعد ضم المكتبات الأخرىٰ إليها فقد بلغ ما يقارب عشرة آلاف كتاب بين مخطوط ومطبوع.

بقيت هذه المخطوطات في المكتبة الوقفية حتىٰ سنة ١٩٩٢م، نُقلت

بعدها إلى مكتبة الأسد لحفظها هناك، بموجب محضر تسلُّم موجود في مديرية أوقاف حلب.

كانت خزانة المدرسة الشرفية بما فيها الخزائن التي آلتْ إليها المصدر الرئيس للمكتبة الوقفية، أمَّا المصادر الأخرى فمن خزائن «المدرسة الأحمدية، والمدرسة العثمانية، والمدرسة الخسروية، والمدرسة الكواكبية، والجامع الكبير، والمدرسة المنصورية، والمدرسة الإسماعيلية، والزاوية الرفاعية (الإخلاصية)، ومكتبة المدرسة الصديقية (جامع الأحمدي)، ودار الكتب الوطنية». هذه الأخيرة نُقل منها إلى المكتبة الوقفية ٢٧٤ مخطوطًا[١].

جدول (٢٤)

عدد مخطوطات الخزائن الحلبية[٢]

اسم الخزانة	الرقم العام	المخطوطات
الأحمدية	١-١٤٣٨ ١٩٨٠ ٥٢٥١-٥٢٥٩	١٤٨٦
العثمانية	١٤٣٩-٢٥٣٤	١٦٤٩
ملحقات العثمانية الأولى	٢٥٣٥-٢٥٦٩	
ملحقات العثمانية الثانية	٢٥٧٠-٢٦٢٢	
الأوقاف (الشرفية)	٢٦٢٣-٣٧٦٥	٢٨٤٦
الملحقات الأولى للأوقاف	٣٧٦٦-٣٧٩٢	
الملحق الثاني للأوقاف	٣٧٩٢ (مشترك لعدة كتب)	
الصديقية	٣٧٩٣-٣٩٦٩	٢٠٠
ملحق الصديقية	٣٩٧٠-٣٩٩٢	

(١) انظر: حلب في مئة عام، ٣/٥٢.

(٢) المكتبة الوقفية بين عراقة الماضي وتطلعات المستقبل، ص٣٨.

اسم الخزانة	الرقم العام	المخطوطات
الرفاعية	٣٩٩٣-٤١١١	١٢٥
ملحق الرفاعية	٤١١٢-٤١١٦	
الخسروية والمولوية	٤١١٧-٤٩٠٩	١٠١٢
ملحق المولوية والخسروية	٤٩١٠-٤٩٧٤	
الوطنية	٤٩٧٥-٥٢٤٨	٢٧٤
مكتبة الجزار		
مكتبة آل الجابري		
مكتبة مديرية أوقاف حلب		
الإسماعيلية		
الجامع الأموي		
مسجد أبي الشامات		
الصلاحية		
الشعبانية		
تكية الوفائي		
جامع السروي		
المجموع		٧٥٩٢

جدول (٢٥)

أقدم المخطوطات في خزانة المكتبة الوقفية[١]

المكتبة	الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلِّف	النَّسْخ
الأحمدية	٧٠/٧٢	زاد المسير في علم التفسير	ابن الجوزي	٥٧٢هـ
الأحمدية	٧٩/٨١	مشكل إعراب القرآن	مكي بن عبد المطلب	٥٤٦هـ

(١) المكتبة الوقفية بين عراقة الماضي وتطلعات المستقبل، ص٣٩-٤٠.

المكتبة	الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلِّف	النَّسْخ
الأحمدية	١٠٦/١٠١	تفسير القرآن العزيز (كشف الحقائق)	الكواشي	٦٦٨هـ
العثمانية	١٤٥٦/٢٥	نُخبة البيان في تفسير القرآن	السهروردي	٦١٣هـ
العثمانية	١٤٥٧/٢٧	الوسيط	الواحدي	٥٧٢هـ

خزائن أخرى ونسخ ووقفيات

مخطوطتان (٦٥٢هـ و٦٢٦هـ) نجتا من المغول

في إحدى الخزائن الخاصة العائدة للسيد أسعد الحلبي نجل ناجي العنتابي، وكان فيها نحو ألفي مجلد، بينها عدد كبير من نوادر المخطوطات، وُجد الجزء الثالث من تفسير القرآن العظيم للإمام الماوردي، وفي ظهر أول صفحة منه عبارة مفهومها أنه مما وقفته إحدى بنات عبد الله بن المستعصم العباسي على مدرسة في ظاهر شارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من مدينة السلام، وذلك في سنة ٦٥٢. والظاهر أن هذا المجلد واحد من ستة.

ومن نوادر المخطوطات أيضًا في هذه الخزانة مجلد من «الفتوحات المكية»، حُررت في آخره هذه العبارة «سَمِعَتْ هذه المجلدة عليَّ أهلي مريم بنت محمد بن بنت عبدون البجائية وفقها الله، وأذنتُ لها أن تحدِّث بها، وتجمع تواليفي ورواياتي. وكتبه محمد علي محيي الدين العربي مؤلف هذا الكتاب بخطه عند فراغ سماعها مني هذه المجلدة، وذلك يوم الجمعة أحد عشر من شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وستمائة، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى»[١]. وكان في هذه الخزانة غير ذلك من نوادر المخطوطات مما يعود تاريخ نسخها إلى القرن الرابع.

---

(١) نهر الذهب ١/١٤٤.

أمّا نسخة «كنوز الذهب بتاريخ حلب» لسبط ابن العجمي الحلبي (ت٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م) وهي بخط المؤلف، فقد آلت إلىٰ الخزانة الخاصة بالمؤرخ كامل الغزي بحسب الرواية التي يوردها - هو نفسُهُ - عن حادثة جرت معه في كتابه «نهر الذهب» ولقد اقتناها خلال موجات البيع الارتجالي للمخطوطات التي شاعت في مدينة حلب وغيرها من مدن الشام والعراق في مطلع القرن العشرين[1].

كما كان في حلب كثير من الخزائن التي فُقِدَتْ لاحقًا، ومنها:

- خزانة جامع الرومي، أُنشئتْ ٧٦٣هـ، أهم مخطوطاتها «تفسير القرطبي»، و«التبصرة» لابن الجوزي، و«مجمع الأحباب» (مجلدان) للحسيني. وكان هناك خزائن في المدرسة السلطانية، والمدرسة العصرونية، والمدرسة الحلوية، والمدرسة الرواحية؛ كلُّها فُقِدَتْ !

التراث المخطوط في حلب
علىٰ سَفُّود الاضطرابات السياسية

ظلتْ خزائن المخطوطات الحلبية خاضعة لقرارات مختلفة، يجري نقلها من مكان لآخر علىٰ وَفْق توجهات فكرية كانت تؤمن بوجود «مكتبة

---

(١) من الصدف الغريبة التي صادفتها أني بقيتُ مدة طويلة أبحث عن كتاب كنوز الذهب فلم أظفر به. ومضىٰ علىٰ ذلك أعوام وقد يئستُ من الظفر به، إلىٰ أن كنت يومًا من الأيام مارًّا في سوق من أسواق حلب، إذ بصرت بامرأة عجوز يدل إزارها علىٰ فقرها وفي يدها كتاب يلوح عليه القِدَم فاستوقفتها، وقلت لها: ما هذا الكتاب؟ أجابتني بقولها (قصة حلب) فتناولته من يدها، وسرعان ما فتحته وقرأت من خطبته فإذا هو ضالتي المنشودة (هو كتاب كنوز الذهب) بخط مؤلفه فقلت لها بكم تبيعينه؟ قالت : دفع إلي به بائع الكتب خمسة قروش وأنا لا أبيعه إلا بعشرة قروش فنقدتها عشرة قروش، وأخذت منها الكتاب، ولو أنها طلبت مني ألف قرش لما استكثرتها. نهر الذهب، ١/١٤١-١٤٢.

وطنية»، وأخرىٰ ترىٰ وجودها في أمكنتها الطبيعية القديمة هو الأسلم. وكلا الفريقين لم يتجاوز الشعارات، إلىٰ تصورٍ وخطةٍ تؤدي إلىٰ الحفاظ المادي علىٰ هذه المخطوطات منعًا من وقوعها بأيدي من لا يعرف قيمتها، أو حفظها علىٰ وَفْق تقنيات تمنع تعرضها للرطوبة والتلف.

ووسط هذه الاضطرابات والشقوق الاجتماعية والسياسية لم تكن فكرةُ التحول البحثي الكبير والجديد تجاه التراث المخطوط قائمة بشكل جدي في أي خطة في بدايات القرن الماضي.

في عام ١٩٤٩م أصدر الرئيس السوري - في ذلك الوقت - المرسوم التشريعي رقم ١٤٧ (٢٠ يونيو - حزيران) بإيعاز من وزير المعارف خليل مردم بيك يقضي بضم كافة المخطوطات إلىٰ دار الكتب الوطنية في حلب، وبسبب الطبيعة المدنية الليبرالية لهذا القرار، فإن شيوخ المدينة لم يرضوا عن ذلك، فما إن قام اللواء سامي الحنَّاوي بانقلابه في العام التالي حتىٰ قدّموا له اعتراضًا علىٰ المرسوم السابق لإعادة المخطوطات إلىٰ المكتبة الوقفية، وأُعيدت كلُّ المخطوطات إلىٰ هذه المكتبة بموجب محضر تسلُّم يظهر فيه عدد مخطوطات كلِّ مدرسة.

جدول (٢٦)

المخطوطات حين إعادتها من المكتبة الوطنية إلىٰ المكتبة الوقفية (الشرفية)

الخزانة المُعَادَة	عدد مخطوطاتها
خزانة المدرسة الأحمدية	١٤٧٤
خزانة المدرسة العثمانية	١٢٥٢
خزانة المدرسة الشرفية	١١٢٢
خزانة المدرسة الخسروية والتكية المولوية	٩٢٥
خزانة المدرسة الصديقية (جامع الأحمدي)	١٧٦
خزانة الزاوية الرفاعية	١١٩

أُعيدت هذه المخطوطات إلىٰ المكتبة الوقفية، وبقيت فيها إلىٰ عام ١٩٩٢م ليجري نقلها إلىٰ مكتبة الأسد في مدينة دمشق بموجب محضر تسلُّم كان محفوظًا في دائرة الأوقاف في مدينة حلب[١]. وبقيتْ المكتبة الوقفية مُقفلة منذ وفاة قيّمها الأخير الأستاذ أحمد السردار عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

في عام (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) عينتْ مديريةُ الأوقـاف أمينًا للمكتبـة[٢]، وجرىٰ جرد وإحصاء المخطوطات في العام نفسه، فتبين أن عدد المخطوطات المنقولة منها إلىٰ مكتبة الأسد كان (٣٩٨٤) مخطوطًا.

إنَّ معظم هذه الخزائن المهمة بقيتْ في حالة من الإهمال والتجميد، وكانت تحت تصرف مَن لا يدرك قيمتها، ولا يحمل من الثقافة والخبرة في المخطوطات ما يدعوه إلىٰ الحفاظ عليها، وتهيئتها للإفادة منها، ولذلك فإن هذه الخزائنُ لم تواكب التطور التقني ثم الإلكتروني، وباستثناء بعض النشاطات والانتقادات عند بعض مثقفي نهضة بدايات القرن الرابع عشر الهجري (مطلع القرن العشرين الميلادي) وشيوخها، فإن الاهتمام بالتراث المخطوط لم ينضج إلىٰ الدرجة الكافية التي تحميه وتحفظه فبقي مُجَمَّدًا في عُهدة مَنْ لا يُدرك قيمته ولا دوره المستقبلي[٣].

---

(١) يقع بناء دائرة الأوقاف علىٰ محيط قلعة حلب، وقد دُمِّرَ تمامًا مع معظم الأبنية في تلك الدائرة في المعارك القائمة في حلب منذ ٢٠١١ حتىٰ الآن. ولا أدري إن كانت سجلاتُه وأراشيفه قد نُقِلَتْ أم لا؟!

(٢) هو الدكتور محمود مصري، وقد سعىٰ ونشط في إدارة جديدة واعية تضمنت كل التقنيات الإلكترونية التي يمكن أن تخدم الحفاظ علىٰ المخطوطات، وتسهيل الرجوع إليها. وعمل بدأب علىٰ استرداد مخطوطات المكتبة الوقفية من مكتبة الأسد، لكنَّ ذلك لم يحدث.

(٣) ويُتابع عبد الرحمن الكواكبي في نفس المقال «والمكتبة مغلقة دائما، ومفاتيحها بيد خادم المدرسة، سلَّمها له القيم عليها، وهذا لا يفتحها إلا عند الطلب خلافًا لشرط =

ومن الجدير ذكره أنَّ بعض عمليات الترميم المعماري وإعادة التوظيف التي خضعت لها بعض هذه المدارس التاريخية وحواضن مخطوطاتها (خزائنها) قَضَتْ علىٰ جوهرها الأثير. فالمدرسة المنصورية تم تحويلها إلىٰ سوق تجارية! وذهبَتْ المدرسةُ ومسجدها وزاويتها وخزانةُ مخطوطاتها فلم يعد لجميعها أي أثر! ثم تتابعتْ لاحقًا عملياتُ الترميم في حلب، كانت في معظمها مرتبطة باستثمارات سياحية خلعَتْ القلبَ التراثي للأمكنة، لا تمتُّ للتراث ولا للمخطوطات بأية صلة، وهكذا إلىٰ أن اكتملت سلسلةُ فقدان عميقة للمخطوطات وخزائنها امتدتْ إلىٰ الوقت الراهن، وأدَّتْ إلىٰ ضياع الحواضن العتيقة للتراث المخطوط.

حلب بدون خزائنها وبدون مخطوطاتها بعد سلسلة الحروب والفقدانات والانتقالات التي تعرضت لها. يستمرُ التدمير في حلب، والمدينةُ الآن بدون أمكنتها القديمة، ومدارسها القديمة وخزائنها، بدون جامعها الكبير ومخطوطاته النفيسة وآلاته الفلكية الشهيرة.. وبدون مئذنته أيضًا ! المئذنة دُمِّرَتْ تمامًا بعد أن كانت تحمل مخطوطًا حجريًّا فريدًا منقوشًا علىٰ كل وجه من وجوهها الأربعة.

داخل المدينة القديمة في حلب تراثٌ من المخطوطات والسجلات والأوراق كانتْ محفوظةً أو منسيَّة في «الأرشيفات» والمستودعات لا ندري ما حلَّ بها الآن، وقد تحوَّلت المدينةُ إلىٰ ساحات لمعارك مستمرة وفضاءات تجتاحُها كُلُّ أنواع القذائف والنيران.

= واقفها. ومن جهة أخرىٰ فإنه ليس لها (فهرست) منظم يعلم منه نفائسها... وطالما راجعت القيِّم في لزوم وضع (فهرست) لها علىٰ الطرق الحديثة، وزيادة خزائنها؛ لتصفَّ علىٰ الاستقامة ليسهل تناول الكتاب المطلوب».

التشكُّل المهم لخزائن التراث المخطوط في دمشق

علىٰ الرغم من أنَّ دمشق الأموية شَكَّلَتْ العاصمةَ السياسية الأولىٰ للدولة العربية خارج نطاق الجزيرة، فإنَّ التكوينات الثقافية التعليمية ذات الطابع المؤسسي لم تتشكل تشكلًا كاملًا في هذه المدينة حتىٰ اقترب العصرُ الأيوبي الذي كان - بدأ العصر الأيوبي في دمشق ٥٩٠هـ/١١٩٣م[١] - زمنَ استردادها بوصفها عاصمة سياسية وثقافية.

وخلال العصرين الأيوبي والمملوكي امتلكت دمشق عددًا كبيرًا من التكوينات العلمية الحاضنة للمخطوطات، فقد زاد عدد (المدارس) فيها علىٰ التسعين مدرسة[٢]. وقد استقطبت العلماء والأدباء والمفكرين، وأصبحت أمكنةً طبيعية (للمخطوطات)؛ إذ هي مؤسسات التعليم لزمن طويل، واستمرتْ بعض هذه المدارس بتأدية وظيفتها حتىٰ منتصف القرن العشرين.

---

(١) الأيوبيون (في مصر: الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ٥٤٢هـ/١١٧٤م - في دمشق: الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين ٥٩٠هـ/١١٩٣م - في حلب: العادل أحمد بن أيوب ١١٨٣/٥٧٩).

(٢) الأعلاق الخطيرة، تاريخ مدينة دمشق في الباب السابع - في ذكر المدارس بدمشق وظاهرها.

جدول (٢٧)

مدارس دمشق حتى نهايات القرن السابع الهجري

٩٤ مدرسة (٩٢ مدرسة فقهية، ومدرستان للطب)

المدارس في دمشق وظاهرها حتى ٦٨٤هـ/١٢٨٥م[1]								
المدارس الحنفية (داخل دمشق)	المدارس الحنفية (خارج البلد)	المدارس الشافعية (داخل دمشق)	المدارس الشافعية (خارج البلد)	المدارس المالكية	مدارس الحنابلة (داخل دمشق)	مدارس الحنابلة (خارج البلد)	المدارس المشتركة	مدارس الطب
الصادرية	الخاتونية البرانية	الجاروخية	الشامية البرانية	الصلاحية	الحنبلية الشريفة (سيف الإسلام)	الصاحبة	العذراوية	الدخوارية
الطرخانية	الفرخشاهية	الأمينية	المجنونية (سبع المجانين)	الشرابيشية	المسمارية	الضيائية المحمدية	الدماغية	اللبودية النجمية (خارج البلد)
البلخية	المعظمية	المجاهدية الجوانية	البهنسية	المالكية	الجوزية	الضيائية المحاسنية	الأسدية	
النورية (الكبرى)	العزيزية	المجاهدية البرانية	الأتابكية		الصدرية	العمرية الشيخية	المقصورة الحنفية بالجامع	
الخاتونية (الجوانية)	العزية البرانية	الشامية الجوانية	الساوجية			المنجائية (زاوية)		
القليجية	الزنجارية أو (الزنجيلية)	الدولعية الشامية	الأمجدية			زاوية ابن المنجا		
الشبلية (الجوانية)	الميطورية	الاقبالية						
الريحانية	العلمية	التقوية						
المعينية	الركنية البرانية	الفلكية						

(١) الأعلاق الخطيرة، من ص١٩٩ إلى ص٢٦٦.

المدارس الحنفية (داخل دمشق)	المدارس الحنفية (خارج البلد)	المدارس الشافعية (داخل دمشق)	المدارس الشافعية (خارج البلد)	المدارس المالكية	مدارس الحنابلة (داخل دمشق)	مدارس الحنابلة (خارج البلد)	المدارس المشتركة	مدارس الطب
الإقبالية	البدرية	الركنية الجوانية						
المقدمية (الجوانية)	المقدمية البرانية	الأكزية						
القيمارية	الشبلية الحسامية البرانية	العمادية الصلاحية						
القصاعية	الماردانية	المسرورية						
العذراوية	المرشدية	العصرونية						
ألتاش		العزيزية						
العزية (الجوانية)		العادلية الكبيرة أو الكبرى						
الفتحية		الرواحية						
العزية (بجامع دمشق)		الشامية البرانية						
السفينية		الشومانية						
النورية الحنفية الصغرى		الأصفهانية						
		الصارمية						
		العادلية الصغيرة						
		المجاهدية القليجية						
		الفتحية						
		الناصرية الجوانية						
		الباذرائية						

المدارس الحنفية (داخل دمشق)	المدارس الحنفية (خارج البلد)	المدارس الشافعية (داخل دمشق)	المدارس الشافعية (خارج البلد)	المدارس المالكية	مدارس الحنابلة (داخل دمشق)	مدارس الحنابلة (خارج البلد)	المدارس المشتركة	مدارس الطب
		القيمرية						
		الصلاحية						
		الشريفية						
		الغزالية (زاوية)						
		القوصية (زاوية)						
		الزاوية الصلاحية						
		الخضرية (زاوية)						
		مدرسة لم تكن من قبل						

لقد تعرَّضت معظم هذه المدارس للدمار بسبب الحروب التي واجهتْها المدينة في العصور اللاحقة، ولئن كانت الحروب الصليبية قد زلزلت بلاد الشام وخزائنها، فإن ما حدث في هجوم التتار من إحراقٍ لمدارس دمشق وجوامعها كان شديدًا ومدمرًا أيضًا، فمما ذكره المؤرخون ما قاله ابن كثير في أحداث آخر القرن السابع ٦٩٩هـ «فقد شرعتْ التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية بها، واحترق جامع التوبة بالعقيبة. ويقال إنهم قتلوا من أهل الصالحية قريبًا من أربع مئة، وأسروا نحوًا من أربع مئة أسير، ونُهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية وخزانة ابن البزوري، وكانت تُباع وهي مكتوبٌ عليها الوقفية، وفعلوا بالمِزَّة مثلما فعلوا بالصالحية»[1]،

---

(١) البداية والنهاية ٨/١٤، خطط الشام ٦/ ١٩٢.

ولسبب ما نجت المدرسة الظاهرية بمخطوطاتها من محاولات التدمير مرة بعد مرة.

لكنَّ الخزائن الدمشقية عادت وتعرَّضت لصعقات الحرب مجددًا في الهجوم المغولي الثاني (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) هذا الحدث المشهور جدًّا عند المؤرخين قديمًا وحديثًا، وقد أطلقوا عليه عدة أسماء (حادثة تيمورلنك، ووقعة تيمور، والفتنة التيمورية) وذلك لهول تأثيرها ونتائجها، يقول عن ذلك محمد كرد علي: «.. فإن النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة أيام، فذهب في هذه الحرب كتب (مخطوطات) المدرسة الضيائية، والمدرسة العادلية وغيرهما من المدارس»[١].

موقع (الظاهرية) وحماية مخطوطاتها زمن الحروب

إنَّ موقع (المدرسة الظاهرية) من النسيج العمراني لمدينة دمشق، وفيها أهم خزانة للمخطوطات، هذا الموقع يقدمُ دلالاتٍ في حماية هذه المخطوطات زمن الحروب والنكبات.

فـ(الظاهرية) تقع في حي العَمَارة قلب دمشق القديمة، بين بابي الفرج والفراديس، في موقع متوسط بين الجامع الأموي وقلعة دمشق وسوق الحميدية، تتفرع منها وإليها كل الدروب المؤدية إلى قلب المدينة، ويمكن أن نلاحظ أنَّ مثل هذه المؤسسات العلمية كانت تُنشأ في وسط التكوينات الرئيسة للمدينة، وفي قلب حركتها، غير منفصلة عنها ولا بعيدة، قريبًا من الجامع والأسواق والقلعة، وإنْ كان لهذا الأمر دلالة معمارية أو مجتمعية، فإنَّ ما يعنينا في موضوعنا هو وجود خزانة المخطوطات في وسط المدينة الحقيقية، وهذا أمرٌ له دلالته المهمة تاريخيًّا

---

(١) خطط الشام ١٩٢/٦.

وحاضرًا، فتاريخيًّا كان وجود المخطوطات داخل النسيج السكني والتجاري للمدينة في مركز الكثافة الحركية قد حمىٰ هذه المخطوطات من النيران المباشرة للمعارك. وأما دلالة الحاضر في موقع هذه الخزانة فهي دلالةُ (المكتبة المجتمعية) الداخلة في نسيج البيوت والدروب والجامع والسوق، المتفاعلة مع كل ذلك، وليس المكتبة المركزية الأحادية المُبْعَدة خارج أي نسيج وخارج نشاطات المجتمع.

أُنشِئت المدرسة الظاهرية[1] في سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) أي بُعيد سقوط بغداد وغرق مخطوطاتها بعشرين سنة، فكان إنشاؤها مع سائر الخزائن الشامية ردًّا علىٰ تلك الآثار التدميرية للحروب. لقد تشكَّلَتْ خزائنَ بديلة جديدة في محاولة مستمرة لخلخلة (الانتصار العسكري) الخارجي عليها، وتأكيد الشخصية الحضارية للمنطقة من خلال ازدهار المكتبات والمخطوطات.

أثر التجديد النهضوي علىٰ التراث المخطوط
من (فقـــدان الخـزائن) إلىٰ (مكتبـــة وطنيـــة)

بدأت خزائن المخطوطات تفقد ذخائرها بشكل كثيف حين دخل القرن الثالث عشر الهجري، ودنا القرن التاسع عشر الميلادي من نهايته، وكانت الحملات الأوروبية الاستشراقية قد أصبحتْ وعينها علىٰ المخطوطات أينما كانت، فاتبعتْ في ذلك كل الوسائل التي توصلها إلىٰ ما تراه (تحفًا لا تُقدر بثمن)، وأن تحصل عليها بأرخص ثمن اعتمادًا علىٰ سذاجة وسطحية و(خيانة) بعض القَوَّامين علىٰ خزائن المخطوطات التي كانت متناثرة في مساجد المدينة.

---

(١) مدرسة السلطان الظاهر بيبرس وتربته.

ومن آلاف الحوادث التي تمثِّل هذا البيع البائس للمخطوطات، يذكر محمد كرد علي هذه الحادثة «أنَّ أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشىٰ منازل بعض أرباب العمائم في دمشق، ويختلف إلىٰ متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة، وكان يبيعها علىٰ الأغلب - وأكثرها في غير علوم الفقه والحديث - لقنصل بروسيا إذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها أبيض، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام حتىٰ اجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها، فأخذتها حكومته منه، وكافأته عليها، والغالب أن معظم المخطوطات العربية المحفوظة في خزانة الدولة في برلين هي من هذا القطر»[1].

ولم تكن هذه الشبكات من القناصل والسفراء والوسطاء والتجار وقُوَّام الخزائن وبعض مالكي الخزائن الخاصة، هي المسارات الوحيدة التي رحل عبرها (التراث المخطوط) عن خزائنه الأصلية، بل هناك ما فُقد بسبب (علاقات سياسية وصفقات خفية) ومنها: خزانة قبة الجامع الأموي بدمشق، وهي «من الخزائن المشهورة التي بُعثرت في عهدنا - نهاية القرن التاسع عشر، بداية العشرين - ولم نعرف متىٰ جُمعتْ لأنها قديمة جدًّا، وخزانة قبة صحن الجامع الأموي، وكانت مملوءة برقوق نفيسة، فُتِحَتْ سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م بأمر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الإمبراطور غليوم الثاني الألماني ! فعثروا فيها علىٰ قطع من الرقوق كُتبتْ فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي، ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات، وقطع من الأشعار المقدسة بالآرامية الفلسطينية، وكتابات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني.. واستخلصتْ

---

(١) خطط الشام ١٩٣/٦.

بعض القطع منها حفظت الآن في دار الآثار في دمشق، وأهمُّها تلك القطعة الكوفية المكتوبة علىٰ رَقٍّ من قطعة شريفة وقفها (عبد المنعم بن أحمد) سنة (٢٩٨هـ)، وعلىٰ الوجه الثاني نقش مذهَّب باسم واقفها»[١].

ونستطيع القول إنَّ ما يشبه (الحملات الشعواء) أخذت تقرض وتستولي وتنهب من الجسد الواسع المترامي والثري للتراث المخطوط، وتدخلتْ في حركتها قراراتٌ عُلْوية سياسية، وقد استشعر ذلك بعض رجال النهضة، وبدأت محاولاتٌ لتقويض هذا الهجوم وتحجيمه.

وبدأتْ رموزُ النهضة العربية العمل علىٰ بعض الأفكار والمبادئ الجديدة الوطنية والمدنية، وكان أحد نتائج ذلك أن اقتُرح إنشاء (مكتبات وطنية) أو ما يُقارب ذلك، ويبدو أنَّ هذه المحاولات المتقاربة مكانيًّا قد تقاربت زمنيًّا، نحو تحقيق مثل هذه (المكتبة الوطنية) في كل من دمشق وحلب والقدس في الوقت نفسه تقريبًا، وتحولت بذلك المدرسة الظاهرية إلىٰ (المكتبة الظاهرية) حين استصدر والي دمشق مدحت باشا قرارًا بجمع الكتب في مكتبة عامة، وكان قد قدَّمَ هذا الاقتراح، ثم حَمَّلَ مهمةَ التنفيذ للشيخ طاهر الجزائري.

ولم تكن مهمةً سهلةً علىٰ الإطلاق ! لكن الشيخ طاهرًا - الذي كان مفتشًا للمعارف - ومعه الشيخ سليم الحجازي عملا علىٰ جمع المخطوطات التي كانت موجودة في خزائن دمشقية خاصة، وفي خزائن المساجد وغير ذلك[٢]. وقد بدا في هذه الحقبة أن المجتمع لم يعد مهتمًّا بالمخطوطات ولا حريصًا علىٰ صيانتها. وأخيرًا أصدر السلطان العثماني قرارًا بجمع المخطوطات، وكان ذلك في سنة (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م) وقد جُمعتْ

---

(١) خطط الشام ١٩٣/٦.

(٢) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (علم الهيئة وملحقاته) ص١٤٣ -١٤٤.

المئات منها من خزائن خاصة وعامة (خزانة المدرسة العمرية، خزانة عبد الله باشا العظم، خزانة سليمان باشا العظم، خزانة الملا عثمان الكردي، خزانة الخياطين، خزانة المرادية، خزانة السميساطية (الشميصانية)، خزانة الياغوشية، خزانة السليمانية، خزانة المكتبة العمومية، خزانة مكتبة الأوقاف، خزانة مكتبة الخطابة بالجامع الأموي). إضافة إلى مخطوطات قليلة أخذت من خزانة المكتبة الأحمدية وخزانة آل الكزبري.

بلغ عدد مخطوطات الظاهرية في أواسط الخمسينيات (٧٩٧٠ مجلدًا)[١] وقد وصل عددها في عام ١٩٨٠ إلى (١٢٠٠٠) مخطوط.

جدول (٢٨)

التطورات التاريخية للمكتبة الظاهرية

دار الكتب الظاهرية[٢]				
العهد الأيوبي	العهد المملوكي	العهد العثماني	بداية القرن العشرين / بعيد انسحاب الدولة العثمانية وبداية الحكم العربي	١٩٨٠
دار سكن للأمراء الأيوبيين	تربة ومدرسة للظاهر بيبرس	مدرسة (المؤسسة الإسلامية المعروفة) ثم مدرسة ابتدائية في نهايات العهد العثماني	دار الكتب العربية ثم ألحقت بمجمع اللغة العربية	نُقلت مخطوطاتها إلى مكتبة الأسد

مع دخول القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، لم

(١) مخطوطات دار الكتب الظاهرية، عمر رضا كحالة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١، ج١، ص٥.
(٢) مخطوطات الظاهرية، محمد مروان مراد، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٤٩٣.

يتبق من الخزائن الدمشقية الموقوفة على المدارس والجوامع إلا بضع خزائن فقط، على حين ضاعت الخزائن (٩٤ خزانة) التي ذكرها ابن شداد في (تاريخ دمشق). انظر الجدول (رقم٢٧).

كان مَنْ استشعر خطر فقدان المخطوطات السريع، واضطلع بمهمة جمعها لصيانتها هو أحد أعلام النهضة العربية، غير أنه قبل كل ذلك هو علمٌ من أعلام المخطوطات في تلك الفترة هو الشيخ طاهر الجزائري. ونُقلت المخطوطات من أنحاء دمشق إلى مدرسة الملك الظاهر ووُضعت تحت القبة[1]، هُدِّد الشيخ طاهر بالقتل إن لم يتوقف عن جمع المخطوطات، لكنه لم يكترث وتابع عمله بحزم وجدية، ويُعد هذا النشاط غير العادي للشيخ سببًا من الأسباب التي حدَّت من تأثير التغييرات السياسية - الاجتماعية، إضافةً إلى الحروب التالية على المخطوطات في كل من دمشق والقدس.

وهكذا تأسست المكتبة الظاهرية بوصفها مكتبة عامة استنادًا إلى قانون قامت الحكومة العثمانية بسنِّه، ووُضعت لها إدارة، مثل أية مكتبة عامة في العالم، وكان ذلك عام (١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م)، وقد بلغت محتوياتها (٣٤٥٣) من المخطوطات والمطبوعات عدا الأوراق المتفرقة على وَفْق ما جاء في الفهرست المطبوع بعد سنة من إنشائها.

كما أَسَّس الشيخ طاهر بمساعدة آل الخالدي في القدس مكتبة وطنية باسم (المكتبة الخالدية) ضمت كتب الشيخ راغب الخالدي وكتب أسرته ومخطوطات أخرى[2].

تعد (المكتبة الظاهرية) مؤسَّسة حكومية في وقتها تشغل مكانًا آمنًا

---

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، إبراهيم خوري، ص١٤٤.

(٢) يأتي الحديث عنها في فصل التراث المخطوط في فلسطين.

رُحِّلت إليه معظم المخطوطات الدمشقية، في وقت كانت المنطقة فيه قد بدأت تدنو من حروب ومواجهات كثيرة، ودخلت البلاد في الانتداب الفرنسي مما كان يعني ما يمكن أن يشكل تهجيرًا تقليديًّا للمخطوطات إلى مدن الاستشراق المعروفة عن طريق سراديب شبكات سرقة المخطوطات المحلية - العالمية، لكنَّ الحصانة والمهابة المُؤَسسية التي أحاطتْ بالظاهرية وتراثها الدمشقي المخطوط خفَّفت من هذا الاحتمال إلى حد بعيد.

حملَتْ شخصيةُ الشيخ طاهر الجزائري تلك الأبعاد الأصيلة التي جعلتْ منه حاميًا واعيًا للتراث المخطوط، قَرَنَ في حضوره المجتمعي المؤثر بين شخصية النهضوي المحيط بذبذبات السياسة واضطرابات المنطقة، وشخصية التراثي الواعي بأبعاد العمق التاريخي لمدينته. وكان في شخصيته كذلك ذلك البُعدُ الهام الذي جعله متواصلًا مع الطرف الآخر (الغرب) باقتدار، فقد كوَّنَ مع الغرب علاقةً صحيةً موضوعية مؤسِّسًا ذلك على مراسلاته الدائمة مع المستشرقين، مما جعل منه عَلَمًا عالميًّا استطاع أن يعبر الجسرَ بين الطرفين.

هيأتْ له - أيضًا - معرفته الواسعة بالمخطوطات واطلاعه عليها أن يكون كذلك علمًا من أعلام الببليوغرافيا[1]، ليكون نموذجًا فريدًا من خبراء المخطوطات العربية في العالم، يحتفظ في ذاكرته بعناوين المخطوطات وأماكن وجودها وأرقامها في الفهارس، ويُسجل تعليقاته على ذلك كلِّه.

وقد كان لوجود هذا الوعي بتفاصيل واقع المخطوطات وخزائنها دور حاسم في حماية هذا المكوِّن المُهم من مكونات هويتنا، ألا وهو التراث المخطوط.

---

(١) المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة (١٧٩٠-١٩٣٠)، ص٣٣٩.

تعرضت خزائنُ المخطوطات في هذه الحقبة العثمانية إلىٰ مزيد من الإهمال والضياع، من ذلك أنها وقعت في أيدي (وارثين) لا يدركون قيمةَ ما ورثوه، فباعوه أو أهدروه. لقد حوّل الشيخ طاهر الجزائري مشروعَهُ الفكري إلىٰ أمرٍ حقّقه علىٰ الأرض، فحوّل ثوابتَ الواقع إلىٰ حركة مؤثرة حَمَتْ ما تبقىٰ من المخطوطات الدمشقية من أثرِ كثيرٍ من الإرباكات والقلاقل التي كانت قائمة.

ويمكن عَدُّ (إنشاء الخزانة الظاهرية) من قِبَل الشيخ طاهر الجزائري بمشاركة عدد من الأساتذة معه، عملًا موفقًا ومُجْديًا خارج الشعارات و«الأدلجة» التي خضع لها التراث لاحقًا دون النظر في واقع التراث المخطوط المادي علىٰ الأرض، وما حلَّ به، وذلك بصفته أوراقًا ثمينة تحتاج إلىٰ تقنيات معينة لحفظها، مثلما تحتاج إلىٰ آليات وطرائق للاستفادة منها وفتح الطرق إليها، فكانت (الفهرسة) الخطوة التالية لإنشاء خزانة المكتبة الظاهرية بوصفها مكتبة وطنية.

كانت (الفهرسة) جزءًا متممًا لمشروع (الظاهرية) فقد وضع الشيخ طاهر كتاب «التذكرة الطاهرية»[١] الذي يقع في أكثر من عشرين مجلدًا تبحث في نوادر المخطوطات ومحل وجودها ومزاياها وأمثلة منها. وغير ذلك من المعلومات التي يستعين بها المحققون في تحرياتهم عن المخطوطات، أي إنه عمل يشبه «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، الذي اعتنتْ الجامعةُ العربية به، فتمَّتْ ترجمتُهُ ونشره، وغدا مرجعًا أساسيًّا في التحقيقات والدراسات والأبحاث المتعلقة بالتراث المخطوط، أما كتاب «التذكرة الطاهرية» فما يزال - للأسف - مخطوطًا ولمَّا يُنشر بعد!

---

(١) المصادر العربية لتاريخ المغرب، ٣٢٥-٣٢٧

فهرسة (الظاهرية) .. تجاوز الضياع وحَفْز البحث

تنبَّه عددٌ من الباحثين بُعيد تأسيس المكتبة الظاهرية إلىٰ ضرورة الفهرسة لكشف محتويات خزائن المخطوطات وحفز الأعمال البحثية والدراسية، وكان في طليعة هؤلاء الباحثين (حبيب الزيات)[١] الذي يتحدث عن تجربته في فهرسة (خزانة المكتبة الظاهرية)، يقول: «لما كانت هذه الفهارس المطبوعة علىٰ هذا النحو من القصور والإخلال، لا تفي بحاجة المتأدب والمؤرخ في هذا العصر، ولا تكفي البتة لإظهار حقيقة ما كانت عليه المعارف والمكاتب سابقًا في هذا القطر، فقد دفعتني آصرة البلدية والرغبة المخلصة في الخدمة الأدبية إلىٰ أن أتولَّى بقدر ما يسعه الذرع القاصر سدَّ جانب من هذه الثلمة في تاريخ وطني، فعلقت منذ أربع سنوات أقلِّب مخطوطات خزانتها الظاهرية، وأُطالع منها ما دعت الحاجة إلىٰ مطالعته إلىٰ أن تَمَّ لي مراجعة كل كتبها الأدبية. فأثبتُّ باختصار ما اجتمع لدي من هذه التعليقات في الجزء الأول من هذا الكتاب»[٢].

قدَّم الزيات في كتابه «خزائن الكتب» فهرسةً للعناوين المضمنة في (مجاميع) الخزانة الظاهرية، وعملُه هذا يُعد مُهمًّا من جهة حماية هذه المجاميع؛ لأن ثمة صعوبة وخطرًا في تحريكها من مكانها خوفًا من وقوعها وتشويه ترتيبها.

لقد أفرزتْ البيئة التراثيةُ الدمشقية خبراء في (فهرسة) التراث المخطوط تجاوزوا الخزائن المحلية إلىٰ التراث المخطوط في المنطقة العربية

(١) كاتب وباحث، توفي ١٩٥٤م. أهم مؤلفاته «الخزانة الشرقية». طريقته في الفهرسة وإشاراته تؤكد معرفته بـ«الببليوغرافيا» ويعد رائدًا في مجاله في بدايات القرن العشرين.

(٢) خزائن الكتب، ص XIV-XV.

عمومًا، وأنتجوا أعمالًا توثيقية مهمة وشهيرة. من أهمها، «أعلام» خير الدين الزركلي و«معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة[١]، و«معجم المخطوطات المطبوعة»[٢] لصلاح الدين المنجد[٣] الذي حاول رصد ما نُشِر من كتب التراث العربي خلال ثلاثين عامًا ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين.

كان للمجمع العلمي العربي بدمشق دور ريادي في فهرسة مخطوطات الظاهرية، وقد كرَّس الدور النهضوي الذي اضطلع به حين قام بنشر فهارس لمخطوطات الظاهرية اعتمادًا على نهج محدد حرص فيه على توثيق كل عنصر من عناصر المخطوطة، بدءًا من أبعاد الأوراق إلى عدد الأسطر، والإشارة إلى السماعات الواردة وتاريخها، حتى وصف التجليد إنْ وجد، كما أشارت هذه الفهرسة إلى المكان الذي كانت فيه المخطوطة قبل أن ترد إلى الظاهرية. ويعد فهرس الدكتور يوسف العش الذي صدر سنة ١٩٤٧ بعنوان «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: التاريخ وملحقاته» بداية صدور هذه الفهارس، ثم تتالت فهارس الظاهرية واستمرت حتى عام ١٩٨٧م.

---

(١) عمر رضا كحالة (١٩٠٥-١٩٨٧م) أمين دار الكتب الظاهرية لسنوات عديدة. أشهر مؤلفاته «معجم المؤلفين» و«أعلام النساء» و«معجم قبائل العرب».

(٢) صدر المعجم في خمسة مجلدات: شمل المجلد الأول المنشورات من ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٠، والمجلد الثاني المنشورات من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥، والمجلد الثالث ١٩٦٦ حتى عام ١٩٧٠، والمجلد الرابع ١٩٧١-١٩٧٥، والخامس ١٩٧٦-١٩٨٠.

(٣) ولد في دمشق ١٩٢٠، عُيِّن مديرًا لمعهد المخطوطات العربية في عام ١٩٥٤م، مؤلفاته وتحقيقاته تتجاوز المئة، وكانت وفاته عام ٢٠١٠م.

جدول (٢٩)

فهارس مخطوطات المكتبة الظاهرية / المجمع العلمي العربي بدمشق

المجلدات	الموضوع	مُعِد الفهرس	سنة الإصدار
١-٢	مج١ : اللغة - البلاغة - العروض - الصرف مج٢: النحو	أسماء الحمصي	١٩٧٣م
٣-٤	المجاميع (مجلدان)	ياسين محمد السواس	١٩٨٧م معهد المخطوطات العربية / الكويت
٥-٦	الفقه الحنفي (مجلدان)	محمد مطيع الحافظ	١٩٨٠م
٧	العلوم والفنون المختلفة عند العرب	مصطفى سعيد الصباغ	١٩٨٠م
٨-٩	الطب والصيدلة (مجلدان)	سامي خلف حمارنة صلاح الدين الخيمي (ج٢)	١٩٦٩م ١٩٨١م
١٠-١١-١٢	التصوف (٣ مجلدات)	محمد رياض الملاح	١٩٧٨
١٣-١٤	التاريخ وملحقاته مجلدان (الثاني مفقود)	د. يوسف العش (ج١) خالد الريان (ج٢)	١٩٤٧م ١٩٧٣م
١٥-١٦	الأدب (مجلدان)	رياض عبد الحميد مراد وياسين السواس	١٩٨٢م
١٧	المنتخب من مخطوطات الحديث	محمد ناصر الألباني	١٩٧٠م
١٨	الرياضيات	محمد صلاح عايدي	١٩٧٣م
١٩-٢٠-٢١	المصاحف - التجويد - القراءات - التفسير (٣ مجلدات)	د. عزة حسن أتمّهُ صلاح الخيمي	١٩٦٢م ١٩٨٣-١٩٨٤م

المجلدات	الموضوع	مُعِد الفهرس	سنة الإصدار
المجلدات التالية مفقودة			
٢٢	علم الجغرافية وملحقاته	إبراهيم خوري	١٩٦٩م
٢٣	الفلسفة والمنطق وآداب البحث	عبد الحميد الحسن	١٩٧٠م
٢٤	الفقه الشافعي	عبد الغني الدقر	١٩٦٣م
٢٥	الشعر	عزة حسن	١٩٦٤م
٢٦	علم الهيئة وملحقاته	إبراهيم خوري	١٩٦٩م

ومن فهارس الظاهرية «فهرس مجاميع المدرسة العمرية» الذي أصدره معهد المخطوطات العربية، وهو منشور إلكترونيًّا. وثمة فهارس أخرىٰ مهمة لظواهر مخطوطية مهمة مثل «ثبت السماعات»، ذلك أن فهارس السماعات(١) وتفاصيلها نوع من أنواع الفهرسة المفيدة.

بلغتْ مجلدات فهارس الظاهرية ثلاثين مجلدًا، قد استغرق نشرها والعمل علىٰ وضعها ما يقرب من أربعين عامًا؛ لكنها لم تُفهرِس سوىٰ نصف رصيد مخطوطات الظاهرية التي بلغت (١١٩٠٢ مخطوطة).

جدول (٣٠)

بعض المخطوطات القديمة من خزانة الظاهرية(٢)

العنوان	المؤلِّف	تاريخ النَسْخ
مسائل الإمام أحمد بن حنبل	أحمد بن حنبل	٢٦٦ هـ
السنن	أحمد بن سعيد النسائي	٣٥٥هـ
الملاحن	ابن دريد الأزدي	٤١٠هـ

---

(١) انظر: معجم السماعات الدمشقية المنتخبة من سنة ٥٥٠هـ حتىٰ ٧٥٠هـ.

(٢) مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ص٧.

العنوان	المؤلِّف	تاريخ النَّسْخ
الموطأ	رواية سويد بن سعيد الحدثاني	٤٤٣هـ
رفع اليدين في الصلاة	محمد بن إسماعيل البخاري	٤٤٥هـ
المطر والسحاب	ابن دريد الأزدي	٤٥٥هـ
المختلف والمؤتلف	عبد الغني بن سعيد الأزدي	٤٨٥هـ
غريب الحديث	عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري	٤٩٩هـ

شَكَّلَتْ الخزانةُ الظاهرية الدمشقية إضاءةً مُهِمَّة في فجر القرن الماضي، فقد حملَتْ بتجربةٍ مخطوطية رائدة واجهَتْ بها فقدان الخزائن وضياع المخطوطات وسرقتها، سواءً في أزمنة الحروب أو في أزمنة الضياع. ويبقىٰ المُنجزُ الدمشقي في مجال (فهرسة المخطوطات) منجزًا عميقًا ومستمرًّا علىٰ المستوىٰ العربي تحقَّق به إلىٰ حَدٍّ ما تجاوز الضياع وتحفيز البحث.

وفي عام ١٩٨٤ أُنشئت (مكتبة الأسد) في دمشق لتكون (المكتبة الوطنية) لسورية، وكان من بين مهماتها جمع المخطوطات لديها وإعداد الفهارس لها.

في مطلع عام ١٩٩٩م بلغ عدد المخطوطات الواردة إلىٰ مكتبة الأسد (٢٠.٠٠٠) مجلد وهو ما يقارب (٤٠.٠٠٠) عنوان، وتكوَّن عُظْم مخطوطات المكتبة من (مخطوطات المكتبة الظاهرية) بدمشق و(مخطوطات المكتبة الوقفية) بحلب.

* * *

الفَصْلُ الثَّانِي

النكبة والتراث المخطوط في فلسطين

(التراث المحاصر والمستولىٰ عليه)

تجاوزت محنة المخطوطات في فلسطين أن تكون مجموعة أحداث وآثار سلبية مباشرة للحرب، فهذا التراث أمسىٰ داخل أسلاك الاحتلال وجدرانه، وصار نهبًا لاحتمالات الفقدان جميعًا.

في ما تأثر (التراث المخطوط) في فلسطين بإشكالاتٍ عميقة قديمةٍ وجديدة بآن معًا ثمة أمران ما زالا مستمرَّين وجدليين في ما بينهما فوق أرضها إلىٰ هذا اليوم: الأمر الأول، هو الحملات الصليبية وكون القدس الهدف المرسوم والمعلن لهذه الحروب. أمَّا الأمر الثاني فيشكل نتيجة غير عادية لتلك الحروب أوقعتْ في النهاية هذا التراث في قبضة الكيان الصهيوني، حين تمَكَّنَ الغربُ - وهو في أوج قوته - من أنْ يُنهي نتائج الحربين العالميتين مخلفًا (دولة الكيان الصهيوني) علىٰ الجزء الفلسطيني من الجغرافيا العربية.

وعلىٰ الرغم من المدىٰ الزمني الذي يفصل بين الحملة الصليبية الأولىٰ في نهاية القرن الخامس الهجري / نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وقيام الدولة الصهيونية في أواسط القرن الماضي، فإنَّ الآثار التي ألمَّت بالذخيرة الفلسطينية من المخطوطات كانت بسبب هذين الحدثين ونتائجهما.

لن يكون البحثُ عن أثر الحرب على (التراث المخطوط) في فلسطين بحثًا عاديًّا، أو قراءةً في لحظة الحرب التي انقضَتْ؛ إذ إنَّ فلسطين ما زالت منذ ما قبل ١٩٤٨م بسنوات طويلة في حالة حرب مباشرة وغير مباشرة، والحرب بمستوييها السابقين نالت من هذا التراث نيلًا أكيدًا. فالحروب والمعارك المباشرة إبان ١٩٤٨م دمَّرت وتركت خزائن المخطوطات بين أيدي الصهاينة، تعاملوا معها سرقةً ونهبًا وبيعًا. في المستوى غير المباشر، يستمر الصهاينة في محاولات البحث عما يثبت حقهم في المكان والزمان، يبحثون عن مخطوطات تَذْكُرُهم، تذكر ما يمكن أن يكون مدينةً لهم، أو أرضًا! وتلك قرصنة فكرية دائبة لها أيدٍ جريئة من اللصوصية المباشرة، «والوقائع كثيرة في الاعتداء الإسرائيلي على التراث الثقافي العربي سواءً في تشويه هذا التراث وطمسه وانتحاله، أو في ممارسة التنقيب الأثري والبحث غير المشروع في المواقع الأثرية لنهبها وطمس معالمها وتشويه مدلولاتها، أو في الاستيلاء على مخطوطات ووثائق لها شهرة عالمية كمخطوطات البحر الميت ووثائق دير سانت كاترين، ومخطوطات المكتبات الخاصة داخل الأراضي المحتلة. والعدو يستخدم هذه الوثائق والمخطوطات بطريقة خاصة ليستفيد منها في دعم ادعاءاته»[١].

إعادة تشكيل خزائن القدس بُعيد معركة حطين

يُشكِّلُ هذا التاريخُ (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) مبدأً زمنيًّا فائق الأهمية في منطقة المشرق العربي كلها، وفي قلبها الفلسطيني على نحو أشد كثافةً. ولئن بقيت منطقة المشرق العربي وعواصم تراثها المخطوط منطقةً ساخنة ومضطربة على نحو يكاد يكون دائمًا، فإن فلسطين كانت أكثر عرضة للحروب والمعارك التي تتناهى فوق أرضها احتلالًا أو انتصارًا. ولئن كان

---

(١) المخطوطات العربية في فلسطين، مجلة المورد، مج٥، العدد (١)، ص٦٩.

التاريخ المذكور هو تاريخ انتصار وتحرير إثر معركة حطين، فإنَّ صراعاتٍ وتناقضات جديدة حَلَّتْ فوق أرضها متوَّجَةً باعتراف دولي وأممي بدولة (الكيان الصهيوني) التي سرعان ما احتلت خزائن التراث المخطوط في المدن الفلسطينية ففتحَتْها وانتهبَتْها بشراهة وشراسة. لم تبقَ المخطوطات المسروقة فوق أرض فلسطين دومًا، بل وجدتْ سبيلَهَا إلى تلك الجمعيات اليهودية المترصدة في أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا لتتلقَّف ما يصل إليها منها.

إنَّ الاجتياحات والحملات والحروب التاريخية (الصليبية والمغولية والتترية) التي عرفتها المنطقة، كثَّفَتْ وجودَها في فلسطين وتمَّ إنهاؤها فوق أرضها، وأُعيد بُعيد الانتصار تشكيل خزائن التراث المخطوط للحرم القدسي.

من بين المعاني غير التقليدية للحرب، أنها حركة عنيفة تُعيدُ التوازن، غالبًا ما يتلوها إعادة بناء الشخصية القومية ومكونات الهوية الثقافية. حين دخل صلاح الدين مدينة القدس مُنهيًا مئةَ سنةٍ من احتلالها ومن إزالة تكويناتها الثقافية العربية، فإنَّ معركتَهُ المُهمة الداخلية تمثلتْ في إعادة بناء المؤسسات الثقافية وإعادة تكوين خزائن المخطوطات التابعة لمدارسها وزواياها ومساجدها بعد ما أُحرقت من قِبَل الحملات الصليبية المتوالية.

لم تقتصر عملية إعادة تكوين المكتبات وخزائن مخطوطاتها على مدينة القدس بل تعدَّاها إلى مدن المنطقة مثل حلب ودمشق «استهل صلاح الدين عهده في فلسطين بعملين جليلين هما: إنشاء المدارس، والعمل على تزويد المسجد الأقصى بالمخطوطات الدينية والعلمية، فقد عمد إلى تحويل الدار التي بناها فرسان المنظمة الصليبية المسماة (الاسبتارية) إلى مدرسة كبرى (هي المدرسة الصلاحية) يُدرسُ فيها الفقه الشافعي»[1]، ويمكن أن نلاحظ أن ما أراد صلاح الدين فعله هو «إعادة تعريف للأمكنة والتكوينات

---

(١) الموسوعة الفلسطينية، ص٢٨٦.

المقدسية، وإيجاد وظيفة جديدة لها بعد أن جرتْ محاولةُ تحميلها بوظائف وسمات خلعتْ قلبَها ودماغَهَا الأصليين، فحوَّل الاسبتارية إلىٰ المدرسة الصلاحية، وأوقف عليها أوقافًا، منها الأسواق الثلاثة المتحاذية المعروفة اليوم بسوق العطارين واللحامين والصيَّاغ»[١].

وبمتابعة هذا الأمر في المصادر التاريخية نجد العماد الأصفهاني يقول: «فاوض السلطانَ جلساؤه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية ورباط للعلماء الصوفية، فعيَّن للمدرسة الكنيسة المعروفة بـ(صند حنة) عند باب الأسباط، وعيَّنَ دار البطرك للرباط، ووقف عليهما وقوفًا»[٢].

هكذا قام الأيوبيون بإعادة إعمار للمدينة المخربة وإعادة بناء لشخصيتها الثقافية، وبدأت عملية التزويد بالمخطوطات للمؤسسات التي بدأوا بإنشائها. «إن السلطان صلاح الدين أمر بهدم البناء الذي أقامه الصليبيون في الصخرة، وأعادها كما كانت، ورتب لها إمامًا حسن القراءة، ووقف عليها دارًا وأرضًا، وحمل إليها وإلىٰ محراب المسجد الأقصىٰ مصاحف وختمات وربعات شريفة»[٣].

استمرَّت خزائن المخطوطات في النمو في الحقبة الأيوبية، ففي عهد الملك المعظَّم عيسىٰ بن أحمد بن أيوب جرىٰ تجديد بناء المدرسة الناصرية (الغزالية)[٤] وجعلها زاويةً لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو، ووقف عليها

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ٥٣٨/٣.

(٢) الفتح القُسِّي في الفتح القدسي، ص٢٩٥.

(٣) الأُنس الجليل ٢٣٩/١.

(٤) كانت علىٰ برج من باب الرحمة الملاصق له باب التوبة، وكلتاهما واقعتان في منتصف سور الحرم الشرقي، عُرفتْ بالناصرية نسبةً إلىٰ الشيخ نصر المقدسي، ثم اشتُهرت بالغزالية نسبةً إلىٰ أبي حامد الغزالي الذي اعتكف بها مدةً.

في جملتها «إصلاح المنطق» لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السِّكِّيت، وهو بخط الإمام النحوي ابن الخشاب. على ظهر إحدى كراسات المخطوط وقف مؤرخ في (التاسع من ذي الحجة سنة ٦١٠هـ / ١٢١٤م)[١].

وقد أُنشِئ في الحقبة الأيوبية والمملوكية عددٌ كبيرٌ من المدارس كان لها خزائنها من المخطوطات (المدرسة الميمونية، المدرسة الدوادارية، المدرسة السلامية، المدرسة الكريمية، المدرسة الجاولية، المدرسة التنكزية، المدرسة الأمينية، المدرسة الملكية، المدرسة الفارسية، المدرسة والتربة الأرغونية، المدرسة الطشتمرية، المدرسة المنجكية، المدرسة الطازية، المدرسة الشيخونية، دار القرآن السلامية، المدرسة الأسعردية، المدرسة اللؤلؤية، المدرسة البلدية، المدرسة الخاتونية، التربة والمدرسة الطشتمرية، المدرسة البارودية، المدرسة الجهاركسية) وكلها من الحقبة الأيوبية. ومن الحقبة المملوكية (المدرسة الصبيبية، المدرسة الكاملية، المدرسة الباسطية، المدرسة الطولونية، المدرسة الغادرية، المدرسة الحسنية، المدرسة العثمانية، المدرسة الجوهرية، المدرسة المزهرية، المدرسة الأشرفية، دار الخطابة).

إنَّ هذا العدد الكبير من المدارس خلال القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة، يدلُّ على أن القدس أضحتْ مركزًا كبيرًا للثقافة الإسلامية، واستقطبتْ عددًا كبيرًا من كبار العلماء والأعلام، وأنتجت عددًا كبيرًا من المخطوطات تأليفًا ونسخًا وتجميعًا مما يشكل قاعدة عميقة وواسعة من الكتب والمراجع (المخطوطات) رفَدَتْ هذا العدد من المؤسسات الثقافية.

---

(١) الأنس الجليل، الموسوعة الفلسطينية ٤/٢٨٧.

خزائن (التراث المخطوط) في فلسطين قبيل النكبة

كان في فلسطين قبيل النكبة خزائن مخطوطات عامة وخاصة كثيرة. والجدول التالي يبيِّن خزائن التراث المخطوط في فلسطين:

جدول (٣١)

خزائن (التراث المخطوط) العامة والخاصة

في المدن الفلسطينية قبيل النكبة

مكتبات عامة	مكتبات خاصة
خزانة المسجد الأقصى - القدس	خزانة آل أبي اللطف - القدس
الخزانة الإسلامية - يافا	خزانة آل البديري - القدس
خزانة جامع الجزار - عكا	خزانة آل الترجمان - القدس
خزانة جامعة بير زيت	خزانة آل الجوهري - نابلس
	خزانة آل الحسيني - القدس
	خزانة آل الخالدي - القدس
	خزانة آل الخليلي - القدس
	خزانة آل الداودي - القدس
	خزانة آل صوفان - نابلس
	خزانة عبد الله مخلص - القدس
	خزانة آل قطينة - القدس
	خزانة محمد إسعاف النشاشيبي - القدس
	خزانة محمود اللحام - القدس / سلوان
	خزانة آل فخري - القدس
	خزانة آل الموقت - القدس
	خزانة المفتي - غزة
	خزانة أبي نبوت - يافا

يدلُّ فهرس أشهر الخزائن العامة - خزانة المسجد الأقصىٰ في القدس - علىٰ أنها تحوي مخطوطات دينية قُدر عددها بألف مخطوط مثل المصاحف والربعات نُسِخَ أكثرُها في العصرين المملوكي والعثماني. في الخزانة أيضًا مخطوطات متفرقة في الأدب والفقه علىٰ المذاهب الأربعة والتفسير والحديث. وثمة مخطوطات نادرة أشارت إليها فهارس الخزانة.

جدول (٣٢)

مخطوطات نادرة من خزانة الأقصىٰ

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
نشق الأزهار في عجائب الأقطار	المؤرخ المصري ابن إياس (٨٥٢- ٩٣٠هـ)	
تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم	أبو بكر الخطيب علي بن ثابت البغدادي (ت ٤٦٤هـ/١٠٧٢م)	
«طبقات الشافعية»	تقي الدين بن قاضي شهبة الدمشقي (ت٨٥١هـ/١٤٤٨م)	
كتاب الأقاليم	الإصطخري (ت٣٤٠هـ/٩٥٢م)	من المحتمل أن تاريخ نسخه يعود إلىٰ أوائل القرن السادس

أما خزائن الكتب الخاصة فكثيرة يتجاوز عددها العشرين موزعة بين المدن الفلسطينية، ووراء كل خزانة من هذه الخزائن تاريخٌ من الوقفيات وتاريخ من نوادر المخطوطات، وحوادث سَجَّلت تنقلاتها من مكان إلىٰ مكان داخل هذه المدينة أو تلك، لكن - لا شك - أنَّ ثمة تاريخًا مشتركًا بين هذه الخزائن جميعها هو نهبها من قِبَل الصهاينة، فخزانة آل الخليلي المقدسية كان قد وقفها الشيخ محمد بن محمد الخليلي مفتي

الشافعية (ت١١٤٧هـ/١٧٣٤م)، ويقال إن الشيخ الخليلي أول من حقَّق فكرة إيجاد مكتبة عامة في القدس استنادًا إلىٰ وقفية كُتبُه. وقد آلت مخطوطاتُ الخزانة إلىٰ المدرسة البلدية بباب السلسلة.

كان في خزانة عبد الله مخلص بالقدس في حَيِّ الشيخ جَرَّاح نفائس المخطوطات، ما لبثت أن نُقلت بعد حوادث ١٩٤٨ إلىٰ بعض الأديرة التي هي قرب سور المدينة من الداخل. وقيل إن الصهيونيين نهبوها إبان معارك ١٩٤٨.

وفي خزانة آل قطِّينة بالقدس بباب العمود مخطوطات نفيسة في الرياضيات والفلك والتنجيم، لم يبق منها اليوم شيء، وخزانة محمود اللحام بضاحية سلوان (شرقي القدس) كان فيها أربعة آلاف مصنف، وخزانة آل فخري وقفها القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد ابن فضل ناظر الجيوش الإسلامية المتوفىٰ سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م . هذه الخزانة قسم من الخانقاه الفخرية المجاورة لجامع المغاربة، ويقال إنها كانت تحتوي علىٰ عشرة آلاف مجلد اقتسمها أفراد الأسرة فتفرَّقت كتبها.

جدول (٣٣)

مصير بعض الخزائن الخاصة للتراث المخطوط في فلسطين قبيل النكبة

الخزانة	موقعها	مخطوطاتها ووقفياتها	ما آلت إليه في عام ١٩٤٨م
آل الخليلي	القدس	وقفها الشيخ محمد الخليلي مفتي الشافعية (ت١١٤٧هـ/١٧٣٤م)	آلتْ إلىٰ المدرسة البلدية بباب السلسلة في القدس
عبد الله مخلص	القدس حي الشيخ جرَّاح	كثيرٌ من نفائس المخطوطات	نُقلتْ في معارك ١٩٤٨م إلىٰ بعض الأديرة قرب سور المدينة من الداخل، ثم نُهبت من قبل الصهاينة في نفس السنة

الخزانة	موقعها	مخطوطاتها ووقفياتها	ما آلت إليه في عام ١٩٤٨م
آل قطينة	القدس باب العمود	مخطوطات نادرة رياضيات، فلك، تنجيم	لم يبق منها شيء !
آل فخري	القدس جامع المغاربة هذه الخزانة قسم من الخانقاه الفخرية	١٠٠٠٠ مجلد	تفرقت بين الورثة.. ثم ضاعت !
آل صوفان	نابلس	فيها مخطوط نادر: مناقب الإمام أحمد بن حنبل. تأليف الحافظ ابن الجوزي (٥٩٩هـ)	

تتمتع فلسطين والقدس بوصفها مركزًا تاريخيًّا للديانة المسيحية بوضع ديني خاص أدىٰ إلى نشـوء علاقة غير عادية للغـرب بها، أحيانًا تكون هذه العلاقة طبيعية، وفي أحيان أخرىٰ تكون غير ذلك. ونتيجة لذلك تشكلت في فلسطين خزائن عديدة لمخطوطات عربية وأجنبية أكثرها تابع للطوائف الدينية والبعثات الأثرية والتبشـيرية الفرنسـية والإنكليزية والأمـيركية، ومنهـا: (خـزانة دير الكرمليين، مكتبة القبر المقدس، مكتبة دير الروم، مكتبة دير الأرمن...).

جدول (٣٤)

خزائن مخطوطات الطوائف الدينية والبعثات التبشيرية في فلسطين

(فيها مخطوطات عربية وأكثرها يوناني ولاتيني)

اسم المكتبة أو الخزانة	مكانها	لمحة عن مخطوطاتها
دير الكرمليين	حيفا	فيها صكوك قديمة ذات علاقة بالدير
القبر المقدس		
دير الروم		٢٧٣٣ مجلدًا باليونانية وغيرها وبينها مخطوطات يونانية مؤرخة في القرن العاشر للميلاد
دير الدومينيكان		
الآباء البيض		
الفرنسيسكان		
دير الأرمن		
الآثار الأميركية		
الآثار الإنكليزية		
المجمع العلمي الأثري البروتستانتي		
الجامعة العبرية		

الخزانتان: الخالدية والظاهرية

تُعد خزانةُ المكتبة الخالدية في القدس المكتبة الوطنية الأولى في فلسطين، وفيها أهم الخزائن الخاصة بآل الخالدي. وقد كانت مدرسة آلت ملكيتها إلى السيدة خديجة الخالدي ابنة القاضي موسى أفندي الخالدي قاضي عسكر بَرِّ الأناضول، فأوصتْ ولدها الحاج راغب الخالدي رئيس المحكمة الشرعية بيافا (المتوفى ١٩٥١) أن يقفها وينقل إليها كتب الأسرة

الخالدية، فنفَّذ وصيتها سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م بمشورة الشيخ طاهر الجزائري مؤسس المكتبة الظاهرية بدمشق والشيخ أبي الخير محمد ابن الحبال الدمشقي، فوضعا فهرسًا بأسماء كتبها.

وجاء في «برنامج المكتبة الخالدية العمومية» وصف للظروف التي أُسست فيها المكتبة وجعلِها دار كتب عامة: «وفق الله جناب الفاضل راغب أفندي الخالدي بمساعدة بعض وجهاء عائلته الكريمة، وهما ياسين أفندي الخالدي وموسىٰ شفيق أفندي الخالدي إلىٰ تشييد غرفة رحبة علىٰ جادة باب السلسلة في القدس الشريف وضعوا كمية وافرة مما وجد عندهم من بقية كتب آبائهم وأجدادهم، وأضافوا إليها بعضًا من الكتب الموجودة عندهم أيضًا، وجعلوا الغرفة المذكورة دار علوم عمومية لمن يرغب المطالعة من أي فرد كان، وشرطوا ألا يخرج منها كتاب حرصًا علىٰ المنفعة العامة، وهي مفتوحة الأبواب لجميع الطلاب كل يوم من الصباح إلىٰ المساء، وعينوا لها محتفظًا أمينًا»[١].

وتحتوي المكتبة علىٰ عشرة آلاف كتاب، ثلثاها مخطوط، والثلث من نوادر المطبوعات القديمة في العلوم العربية والإسلامية. وقد ضُمَّتْ إليها خزانتا الشيخ يوسف ضيا باشا الخالدي ومحمد روحي الخالدي، وضُمَّت بعدئذ إليهما خزانة الشيخ أحمد بدوي الخالدي، بالإضافة إلىٰ ما أهدي إليها من نفائس مطبوعات المستشرقين.

وتَبيَّن من مطالعة فهرست المكتبة أنها تحوي كتبًا في التفسير والتجويد والقراءات والرسم والحديث والأصول والفتاوىٰ والفقه الحنفي والفقه علىٰ المذاهب الأربعة والفرائض والتوحيد والتصوف والمواعظ والحكم والنحو واللغة والأدب والسياسة والقوانين والدواوين والمدائح

---

(١) برنامج المكتبة الخالدية، ١٩٠٠م.

النبوية والسيرة النبوية والمناقب والتراجم والفلك والطب والروحانيات، وفيها عدد كبير من المجاميع في العلوم الدينية والدنيوية.

وقد زار المكتبة سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م عبد الله مخلص، فوصف في مقال نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق أهم مخطوطاتها النادرة التي طبعت.

جدول (٣٥)

نوادر مخطوطات الخزانة الخالدية (١٣٣٦هـ/١٩١٧م)

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
المدهش	الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)	
الشعور بالعور	خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)	كتبت النسخة بعد وفاة المؤلف بنحو ثمانين سنة
الطبقات السنية في تراجم الحنفية	تقي الدين بن عبد القادر الغزي التميمي الداري (ت١٠١٠هـ/١٦٠١م)	
مختصر حياة الحيوان	جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)	ملخص من (حياة الحيوان الكبرىٰ) للدميري
اختصار السيرة النبوية	الشيخ محيي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ/١٢٤٠م)	
مجموع	تقي الدين السبكي (ت٧٥٦هـ/١٣٥٥م)	نسخة المؤلف بخطه بغير تنقيط
إتحاف الأخصا في فضائل المسجد الأقصىٰ	الشيخ كمال الدين محمد أبي شرف الشافعي (ت٩٠٦هـ/١٥٠٠م)	ألَّفه في مجاورته القدس سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م
حُسن الاستقصا لما صح وثبت في المسجد الأقصىٰ	أحمد بن التافلّاني	ألَّفه سنة ١١٠٠هـ/١٦٩٩م وأهداه إلىٰ صنع الله الخالدي

العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
قهوة الإنشاء	ابن حِجَّة النحوي (ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م)	مجموع رسائله
شاناق في السموم والترياق	شاناق الهندي	نقله من الهندية إلىٰ الفارسية مَنَكَه الهندي، ونقله إلىٰ العربية للخليفة المأمون العباس بن سعيد الجوهري (نسخة خزائنية)
تأويل مشكل الحديث والرد علىٰ الملحدة والمعطلة وأهل الأهواء المبتدعة	أبو بكر محمد بن حسن ابن فورك (ت٦٠٤هـ/١٢٠٨م)	
دمية القصر وعصرة أهل العصر	أبو الحسن علي الباخرزي (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م)	يعود تاريخ المخطوط إلىٰ سنة ١١٦٦هـ/١٧٥٢م، وهو ذيل ليتيمة الدهر للثعالبي

أثر العقدة اليهودية علىٰ (التراث المخطوط) في فلسطين

بن هورين.. وابن شداد

يقوم فرعٌ من المستشرقين المُغرَضين بحملاتٍ وإغارات قديمةٍ وجديدة استهدفَتْ (التراث المخطوط)، فما زلنا نشهدُ تسارعًا بحثيًّا وتنقيبيًّا يتوسل بالبحوث والدراسات للتقليل من الأهمية العربية والإسلامية للقدس وتسطيحها وتضخيم وادعاء (وجود يهودي) واستخراجه من تحت التراب، أو من فوقه، أو من ورقة قديمة، أو من تأويل، أو من تحميل، أو من تآمرٍ بحثي !

ذهب هؤلاء المستشرقون في كل اتجاه، غير أنهم اهتموا اهتمامًا أكبر بحقبة الحملات الصليبية، وهي الحقبة التي وضع ابنُ شداد فيها كتابه المهم

«الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» وفيه تواريخ المدن الشامية، ومنها الفلسطينية من النواحي الطبيعية والمعمارية والديموغرافية.

وقد حاول هؤلاء أن يجدوا دورًا لليهود في مقاومة الصليبيين بناءً على أنَّ القدس هي مدينتهم من وجهة نظرهم! ولأنه لا دليل على مثل هذا الأمر فقد ذهبوا في تجريح الوجود العربي الإسلامي وتسطيحه، فذكر أحدهم (يمانويل سيفان) أنَّ المسلمين لم يأبهوا للاحتلال الصليبي للقدس، وإذ قالوا ذلك فإنهم شرعوا في البحث والتنقيب كي يجدوا شيئًا يساعدهم على التدبيج الأولي لحضور تاريخي لليهود في القدس، ليس ذلك فحسب، بل تلفيق وإظهار مقاومة أبداها (اليهود) في مواجهة الصليبيين، تُداني أو تشابه تلك المقاومة المستمرة التي أبداها العرب والمسلمون. لكنَّ اليهود لم يكن لهم أدنى حضور سياسي مذكور في تلك الحقبة، بل لم يكن هناك مثل هذه المسألة الغريبة!

وقد ركَّزَ هؤلاء المستشرقون على الناحية الديموغرافية للقدس، وأنها بقيت طوال العهود الإسلامية مدينةً مُهملة بلا هوية عربية إسلامية!

من بين المخطوطات التي لفتت انتباه المستشرقين عمومًا والمستشرقين اليهود خصوصًا، وهم ذوو أغراض خاصة، كانت «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» لابن شداد عز الدين المتوفى سنة (٦٨٤هـ)[1] خصوصًا الجزء الثاني من الكتاب بقسميه: تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. يقول سامي الدهان - محقق الكتاب - في مقدمة التحقيق للقسم الثاني من هذا الجزء: «ولكنَّ أجزاءه - أي أجزاء كتاب

(١) حُقِّق الكتاب وطُبع بكامل أقسامه، ولكنَّ ذلك لم يتم دفعة واحدة، ولا بعملية تحقيق واحدة ومحقِّق واحد، فالدكتور سامي الدهان قام بتحقيق الجزء الثاني من الكتاب بقسميه: تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين.

الأعلاق - تفرقتْ نسخُهَا في أطراف المعمورة، فاستلبتْ كُلُّ خزانة من خزائن الشرق والغرب جزءًا من كتابه الكبير، وقام الدارسون بوصف مخطوطات الأجزاء الثلاثة، وظلوا يتحدثون عنها منذ ثلاثين عامًا في المجلات والمؤتمرات»[١].

ونظرًا لتأكيد المستشرقين أهمية هذا الجزء من «الأعلاق»، فقد حاولَتْ الطلائعُ الأولىٰ منهم الذين وصلوا إلىٰ فلسطين الحصول علىٰ نسخة منه بغية نشره. حدث ذلك بشأن هذا الكتاب بالذات منذ سنة ١٩٤٧م (قبل أن تبدأ التحقيقات العربية وغير العربية للكتاب) في جامعة القدس المحتلة ومن قِبَل المستشرق (بن هورين) الذي أرسل طلبًا إلىٰ مكتبة ليدن يطلب فيه تصوير هذا الجزء من الكتاب عن النسخة المخطوطة لديها منه، وكان هذا الطلب من فلسطين بتاريخ ١٩٤٧/٣/١٣م وقد أجابت المكتبة بالموافقة. هذا الاهتمام المبكر بالكتاب كان يبغي نشره وترجمته، لكن هذا المستشرق اليهودي (بن هورين) مات قبل أن يحقِّق أي شيء من هذا، غير أننا نضمُّ اعتقادنا إلىٰ ما ذهب إليه سامي الدهان في مقدمة التحقيق من أن (بن هورين) كان يبحث عن مرجع يشير إلىٰ وجود يهودي في هذه المناطق، فكأنه ظنَّ أن يرىٰ عند ابن شداد إحصاءً بعدد اليهود في كل مدينة، غير أنَّ ابن شداد لم يذكر في تاريخه أي شيء من هذه الإحصاءات، إذ إن منهجه التاريخي كان بعيدًا كل البعد عن أن يهتم بمثل هذا الأمر. ويبدو أنَّ الذي حَفَّزَ المستشرقَ (بن هورين) علىٰ الاهتمام بذلك أن بعض الرحالة اليهود كانوا يذكرون مثل هذه الإحصاءات، ولعله توسم أن يجدها عند مؤرخ مسلم مرموق مثل ابن شداد، لكنَّه ما وجدها !

---

(١) من مقدمة الدكتور سامي الدهان لتحقيقه لكتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» لابن شداد. «تاريخ لبنان والأردن وفلسطين». م. م[١٥].

لا شكَ أنَّ مدينة القدس غَدَتْ هدفًا أوروبيًّا مباشرًا منذ سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م استند بقوة إلىٰ الأيديولوجيا الدينية، وعلىٰ امتداد هذه المدة نشطَ الرحالة والمستكشفون الأوروبيون الذين شكَّلوا في بعض الأحيان فرعًا استشراقيًّا رَفَدَ الخطة الأوروبية العامة في استهداف الشرق ومحاولة توظيفه لخدمة مشروعات وأهداف غربية !

ثمة روافد أخرىٰ رفَدَتْ داخل البنية الأوروبية الاستشراقية في حروبها علىٰ الشرق الإسلامي، تمثَّلت في جيوب يهودية مافتئتْ تُظهِرُ هويتها بعزلتها الشديدة وتُظهِرُ رغبةً استشراقية خاصة داخل الرغبة الأوروبية العريضة والفصيحة تحدوها بعنفٍ «أدلجةٌ» دينية تتجه إلىٰ بيت المقدس، وهي في هذا الجانب كانت تتطابق مع الهدف الأوروبي !

مما يجدر ذكره أن الوجود اليهودي التاريخي داخل المجتمعات الإسلامية لم يكن يتَّسمُ بالعزلة، حتىٰ إن الوجود الأندلسي اليهودي بقي مندمجًا حضاريًّا وإنسانيًّا في المجتمع الأندلسي المسلم. وبعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م لم يجد هؤلاء اليهود مكانًا يهاجرون إليه هربًا من محاكم التفتيش غير البلاد العربية والإسلامية !

قبل ذلك بمئة عام قام الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي[١] برحلة من طليطلة في الأندلس إلىٰ المشرق ابتدأها سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م زار خلالها فلسطين، وذكر عدد اليهود في كل المدن المشرقية الإسلامية التي زارها، فهو يذكر أن عدد اليهود في عكا كان ٢٠٠ يهودي، وفي اللد يهودي واحد ! وفي نابلس لا يوجد يهود أبدًا، وفي الرملة ٣٠٠ يهودي. ويبدو أنَّ هذه الرحلة وإحصاءها لليهود هي التي حَفَّزَتْ (بن هورين) علىٰ الاهتمام بمخطوطات أخرىٰ لعلها تكون قد اقتربت من اليهود ووجودهم في المدن العربية.

---

(١) رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها إلىٰ العربية عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م.

لقد تجاوزتْ محنةُ (المخطوطات) في فلسطين مسألةَ أن تكون مجموعةً من الأحداث والآثار السلبية المباشرة للحرب، فهذا التراث المُحاصر والمُستولى عليه دخل في الأشد والأدهى، بعد أن أمسى داخل أسلاك وجدران الاحتلال تمامًا، مما وضعه أمام احتمالات الفقدان كلها، مثل ترحيل المخطوطات إلى الخزائن الأوروبية التقليدية، أو حبسها وتجميدها وعزلها عن محيطها الفلسطيني والعربي، أو فقدانها خلال المواجهات الساخنة حرقًا أو تدميرًا.

ستبقى (إسرائيل) كيانًا شديدَ الخوف من كل ما يحيط به، فكيف إن كان أحد مخاوفها هو (التراث المخطوط) مصدر هويةٍ وتاريخ وشخصيةِ أصحابِ المكان بدائرتيه الصغيرة الفلسطينية والكبيرة العربية والإسلامية ؟!

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

التراث المخطوط في العراق
بين كارثتي المغول والاحتلال الأميركي

سنبقى مدة طويلة نحاول إعادة التضاريس النوعية، ليس لوجه العراق فحسب، بل لوجه المنطقة العربية بأسرها، وسوف ترتفع أمامنا إحداثيات المشكلة المكانية والزمانية.

ليس التاريخُ وحده هو الذي تراكمَ فوق الجغرافيا العراقية، فأعطاها تضاريسها النوعية، بل هناك ذلك الجزء المادي من هذا التاريخ أيضًا، الذي ما زال حيًّا بأوراقه وأحباره وكلماته، يحمل إلينا حضورَهُ من القرن الأول للهجرة عبر تلك الرقوق بآياتها الكريمة، وبخطها الكوفي العتيق. يحضرُ بيننا كذلك بتلك المخطوطات التي يعود تاريخُ نسخ بعضها إلى القرن الثالث أو الرابع. هذا الإرث كان قد بدأ بالتراكم والذيوع منذ أن أصبحتْ بغداد عاصمة لدولة ذات امتداد عالمي وتأثير حضاري غير محدود.

تشكّلَتْ خزائنُ المخطوطات البغدادية بدءًا من تلك المؤسسة البحثية ذات الطابع الأكاديمي العالمي (بيت الحكمة) ولما تنتهي بشكل قاطع بتلك الخزائن التي أنشأها الخليفة الأخير المستعصم بالله، وكأنه أراد أن يبني بها جبهةً عميقة أمام غُزاة أجلاف جاؤوا من مكان بعيد جدًّا عن عاصمته المخملية الأثيرة. وما بين المبتدأ عند الخليفة المأمون وخزائنه التي جُمِعَتْ

إليها مخطوطاتُ الأرض في القرن الثالث الهجري، والخزائن التي دمَّرها هولاكو في القرن السابع الهجري، ما بين هذين الحدثين ستظهر مؤسسات علمية كان لها دور بالغ ليس في بغداد فحسب، بل علىٰ مستوىٰ الدولة العباسية واسعة الأرجاء، وكان لهذه المؤسسات دور الإنتاج الكتابي الثري، أي إنتاج المخطوطات واستنساخها (نشرها بتعبير العصر)، كان من أهم هذه المؤسسات، المدرسة النظامية[١] وقد كان في خزائنها ما يزيد علىٰ (٦٠٠٠) مجلد متنوع الموضوعات. وكان في مخطوطاتها النوادرُ والنفائس أيضًا. وإنَّ ذلك ناشئٌ عن وجود كثافةٍ عالية من أعلام الفكر والعلم الذين تخرَّجوا فيها وعملوا بها، من أمثال الإمام أبي حامد الغزالي، والمؤرخ ابن شداد، وكثير من الشعراء والأدباء الذين غدوا من المشاهير بعد ذلك، فالمدرسة النظامية كانت حاضنتهم وحاضنة كتبهم (مخطوطاتهم). ومما يجدر ذكره أن هذه المدرسة استمرَّت في أداء دورها العلمي المركزي إلىٰ ما بعد الغزو المغولي.

كانت المدرسة المستنصرية من بين هذه المؤسسات التي قامت بدور المُنتج والحاضن للفكر والعلم وما أصبح لنا في ما بعد (تراثًا مخطوطًا)، ولما تزل من أهم العمارات الأثرية حتىٰ الآن في بغداد، وبها الجامعة المستنصرية.

إذن، كانت خزائن (التراث المخطوط) بتراكماتها المديدة قد منحتْ العراقَ تضاريسَهُ الثقافية الخاصة، ليس لأنه حاضنٌ للخزائن فقط، بل منتج للمخطوطات وناشر (ناسخ) تاريخيٌّ لها، عبر دور (العاصمة العالمية) الذي عرفته بغداد لزمن تجاوز القرون الخمسة، حين لاحتْ الكارثةُ الأولىٰ

---

(١) أسسها نظام الملك وزير السلاجقة، وخُصصت منذ البداية لتدريس علوم السُّنة وخاصةً المذهب الشافعي.

(٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ليكون هدفها التالي بعد اجتياح العاصمة العباسية وتدميرها؛ اجتياح خزائن المخطوطات ورميها في دجلة.

كانت تلك من أعظم الكوارث التاريخية التي صدَمَتْ المنطقةَ بأسرها، وأخلَّتْ باستقرارها، وزلزلتْ الأوعية المعرفية لحضارتها.

وأما أكبر الكوارث العصرية التي ألَمَّتْ بما تبقىٰ من الثروة المخطوطية العراقية فتبدأ بحرب الخليج الأولىٰ والثانية (١٩٩١م) فالاحتلال الأميركي (٢٠٠٢م) للعراق، وهذه كارثة ستبقىٰ آثارُها طويلًا علىٰ هذا التراث، وسنبقىٰ مدة طويلة نحاول إعادة التضاريس النوعية ليس لوجه العراق فحسب، بل لوجه المنطقة العربية بأسرها. وسوف ترتفع أمامنا إحداثياتُ المشكلة المكانية والزمانية، وبُعدٌ ثالث سيشكل التباسات ضياع المخطوطات وفقدانها: خزانة المتحف العراقي، مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد، دار المخطوطات العراقية (دار صدام)، والملجأ الذري للمخطوطات.

لكلٍ من هذه الخزائن مسارٌ وأحداث مرَّتْ عليها وعلىٰ ذخائرها من المخطوطات، فقد انتقلت من خزانة إلىٰ خزانة، وربما اختبأتْ من حرب إلىٰ حرب، ليستقرَّ بعضُها في خزائن جديدة نسبيًا، وقد رافق ذلك إراداتٌ وقراراتٌ غاية في التعقيد. سوف نمرُ في عُجالة علىٰ بعضها وما كان فيه من كنوز.

(المتحف العراقي) أوسع خزانة معاصرة للمخطوطات العراقية

أثر سلبي تصنيفي أبعد المحتوىٰ عن روح العصر

يُشكِّلُ (المتحف العراقي) لبغـداد والعـراق ما مَثَّلَتْه كلٌّ من المكتبة الظاهرية لدمشق والمكتبة الوقفية لحلب، وإلىٰ حدٍّ ما المكتبة الخالدية في القدس؛ إذ هدفت جميعًا إلىٰ تجميع المخطوطات في مكتبة واحدة خوفًا

عليها من مجموعة من الآثار السلبية التي بدأت تتضح منذ بدايات القرن العشرين، وقد أتينا على ذكر بعض هذه الأسباب والآثار حين الحديث عن تلك الخزائن.

خزانة المتحف العراقي خزانةٌ حديثة، أُنشِئتْ في عام ١٩٣٣م، وكان عدد مخطوطاتها قد أصبح في منتصف الخمسينيات (٢٢٤٦) مجلدًا مخطوطًا[١] وأصبحتْ بذلك أوسع خزائن العراق في عدد مخطوطاتها، وتميَّزت بوجود أكبر عدد من المخطوطات النادرة، بينها مجموعاتٌ من المخطوطات غير العربية.

جدول (٣٦)

مخطوطات المتحف العراقي بحسب لغاتها[٢]

التصنيف اللغوي	عدد المخطوطات
المخطوطات العربية	٢٠٠٦
المخطوطات الفارسية	١٠٦
المخطوطات التركية	٨٩
المخطوطات الأردية	١
المخطوطات العبرية	٢١
المخطوطات المندائية (الصابئية)	٩
المخطوطات السريانية والكرشونية (لغة سريانية والمراد بها هنا المخطوطات العربية المكتوبة بحروف سريانية)	٧
المخطوطات الفرنسية	٤

(١) مخطوطات مكتبة المتحف العراقي ببغداد، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١، ج١، رمضان ١٣٧٤هـ/ مايو ١٩٥٥، ص٣٧-٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

التصنيف اللغوي	عدد المخطوطات
المخطوطات الألمانية	١
المخطوطات الإيطالية	١
مخطوطات بلغات أخرى	١

وصلت هذه المخطوطات إلى المتحف العراقي من ثلاثة مصادر: الشراء من مالكي المخطوطات، وما تم إهداؤه للخزانة، وما صودر من أصحابه لدواعٍ معينة.

إنَّ متابعة مصادر مخطوطات المتحف العراقي ستكشف عن تاريخ تنقلات هذه المخطوطات وإمكانية متابعة ما تبقّى منها، وإلى حدٍّ ما ضاع منها. أمَّا الخزائن الخاصة التي اشتُريت مخطوطات منها، فهي موضحة في الجدول التالي:

جدول (٣٧)

المخطوطات المشتراة من خزائن عراقية خاصة لصالح خزانة المتحف العراقي (يظهر فقدان ما تبقى من الخزائن بسبب بيعها من قِبَل الورثة)

عائدية الخزانة	عدد المخطوطات المشتراة منها، وسنة الشراء	ملاحظات
الشيخ محمد السماوي[1]	٥٨ في عام ١٩٤٩م	«في مكتبته من نوادر المخطوطات وأعلاقها شيءٌ كثير»[2] بيعت خزانته كلها من قبل ورثته بعد وفاته ١٩٥٠م

(١) من أعلام النجف الشريف.

(٢) مخطوطات مكتبة المتحف العراقي ببغداد، مرجع سابق، ص٣٩.

عائدية الخزانة	عدد المخطوطات المشتراة منها، وسنة الشراء	ملاحظات
		بعض مخطوطاتها اقتناه بعض الأدباء والمتتبعين في النجف (صادق كمونة - محمد علي اليعقوبي - صالح الجعفري - محمد رضا فرج الله)
الشريف حازم	٢٠٤ في عام ١٩٤٩م	
عبد اللطيف ثُنيان	١١ في عام ١٩٥٢م	بعد وفاته بيعت مكتبته بشكل كامل

وأما المخطوطات التي أُهديتْ إلى خزانة المتحف، فيبينُها الجدول التالي:

جدول (٣٨)

عدد المخطوطات المهداة إلى خزانة المتحف العراقي[١]

المُهدي	عدد المخطوطات	سنة الإهداء
محمد أحمد المحامي - البصرة	٥	١٩٤٠م
المكتبة العامة في بغداد	٩٣	١٩٤٦م
الآباء الكرمليون في بغداد (مخطوطات الأب أنستاس ماري الكرملي)	١٣٣٥	١٩٥٠م

وثمة مخطوطات قامت الحكومة العراقية بمصادرتها وضمَّتها إلى خزانة المتحف العراقي.

(١) مخطوطات الكرمليين في خزانة المتحف العراقي، ص ٢٧٨-٢٨٣.

جدول (٣٩)

مخطوطات مُصَادَرَة وُضعتْ في المتحف العراقي

الجهة التي تعود إليها	عدد المخطوطات	سنة إحرازها
مخطوطات السيد رشيد عالي الكيلاني	١١٧	١٩٤٩م
مخطوطات عبرية من مخلفات اليهود ببغداد	١٧	١٩٥٤م

بعض هذه المخطوطات كان معروضًا في عام ١٩٥٥ في متحف الآثار العربية في خان مرجان، وأغلبه من المصاحف المذهبة والمُزوقة.

ولمّا كانت خزانة المتحف العراقي المآل الأخير لمعظم المخطوطات العراقية، فقد حوت عددًا كبيرًا من نفائس المخطوطات ونوادرها[1].

جدول (٤٠)

نوادر مخطوطات المتحف العراقي

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
المصاحف	طائفة كبيرة ذات خطوط منسوبة وتزاويق جميلة، وجلود مذهبة ومطلية بالمينا، وبينها قطع مكتوبة على الرقوق بالخط الكوفي، وبعضها مكتوب على النسيج، وبعضها مكتوب بحجم صغير ثماني الشكل وورق رقيق صقيل		
اللغة	العين	الخليل بن أحمد	مجلدان
	المحيط	الصاحب بن عباد	مجلدان
	الصحاح في اللغة	الجوهري	بضع نسخ قديمة من القرن ٦ و ٧و٨ للهجرة
	القول في ألفاظ الشمول والعموم والفصل بينها	المرزوقي	تاريخ نسخها ٦٤٩هـ
	خلق الإنسان	أبو عبد الله الطيب	

(١) مخطوطات ثمينة في خزانة المتحف العراقي، ص٢٨٤-٢٩٣، ومخطوطات المتحف العراقي، ص٤٠-٤٧.

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
الأدب	مقامات ابن حمويه	ابن حمويه	
	المقامات المسيحية	ابن ماري	
	الزهرة	أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني (ت٢٩٧هـ)	القسم الثالث من نسخة ملوكية قديمة. تاريخ نسخها ٧٢٩هـ وهذا غير القسم المطبوع في شيكاغو
	نهج البلاغة		تاريخ النسخ ٥٦٥هـ
	ربيع الأبرار	الزمخشري	المجلد الثاني منها بخط قديم. وسائر مجلدات هذه النسخة في خزانة الأوقاف العامة ببغداد
	شرح مقصورة ابن دريد		تاريخ النسخ ٧٤٤هـ
	المستقصىٰ في أمثال العرب	الزمخشري	تاريخ النسخ ٦٠٧هـ
	السحر الحلال من إبداع الجلال	الناصر محمد بن قانصوه	تاريخ النسخ ٩١٥هـ
	مفتاح الأرواح في امتداح الراح	أمين الدولة عبد المحسن بن محمود الحلبي (ت٦٤٣هـ)	
	نوادر المنح في الملاحة والملح	محمد أمين العمري الموصلي (ت١٢٠٣هـ)	لعلها بخط المؤلف
الشعر	ديوان يزيد المزرد	يزيد المزرد	تاريخ النسخ ٦٤٩هـ
	ديوان الحماسة	أبو تمام	تاريخ النسخ ٥٠٤هـ
	المختار من ديوان الصرصري	الصرصري	

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
	شرح ديوان سقط الزند للمعري	المعري	
	ديوان سعد الدين محمد بن الشيخ محيي الدين بن عربي	سعد الدين محمد بن الشيخ محيي الدين بن عربي	
	ديوان أبي الفتح الحسن ابن عبد الله بن أحمد ابن أبي حُصَيْنة السلمي المعري (ت٥٠٠هـ)	أبي الفتح الحسن ابن عبد الله بن أحمد ابن أبي حُصَيْنة السلمي المعري	هذا الديوان قسمان: الأول، من الديوان الذي جمعه أبو الفتح المعري. والثاني، شرح هذا الديوان لأبي العلاء المعري
	ديوان حسين بن علي العشاري	حسين بن علي العشاري	
	ديوان السيد صالح القزويني النجفي البغدادي (ت ١٣٠١هـ)	السيد صالح القزويني النجفي البغدادي	
	ديوان ولده السيد راضي بن السيد صالح القزويني	السيد راضي بن السيد صالح القزويني	
	ديوان الشيخ إبراهيم بن صادق بن يحيىٰ العاملي	الشيخ إبراهيم بن صادق بن يحيىٰ العاملي	نسخة نفيسة جدًا
	ديوان عبد الله بن علوي الحداد	عبد الله بن علوي الحداد	تاريخ النسخ ١١٤٥هـ
	ديوان جعفر البحراني	جعفر البحراني	
	ديوان الحُطيئة		نسخة قديمة جدًا ممن تملكها ابن أسامة ابن منقذ

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
	مجموعة فيها: ديوان أبي طالب وديوان أبي الأسود الأسود الدؤلي وديوان سحيم وديوان العرجي		
	نزهة الدنيا في ما ورد من المدائح على الوزير يحيى (باشا الجليلي)	عبد الباقي العمري	
	مجموعة فيها: روضة الشيخ صالح التميمي يمدح مولى الحويزة وروضة الموصلي يمدح حمد الحمود الخزاعي		
التاريخ	مرآة الزمان	سبط ابن الجوزي	المجلد الثاني من نسخة خزائنية قديمة
	التاريخ الغياثي	عبد الله بن فتح الله البغدادي المعروف بالغياث	نسخة فريدة
	الذخيرة	ابن بسام	٢ مجلد
	الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة	تقي الدين الفاسي	
	تاريخ الجبرتي	الجبرتي	بخط المؤلف
	روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح	السيد عيسى لطف الله ابن المطهر بن الإمام شرف الدين اليماني الزيدي (يبحث في أحوال اليمن)	

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
	غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام	ياسين العمري الموصلي (ت١٢٢٩هـ)	
	الروضة الفيحاء في تاريخ النساء	ياسين العمري	
التراجم	المصباح المضيء في خلافة المستضيء	ابن الجوزي	نسخة حديثة منقولة عن النسخة الفريدة القديمة التي في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد
	وفيات الأعيان	ابن خلكان	بضع نسخ، بعضها يُظَنُّ أنه بخط المؤلف
	شمامة العنبر	محمد الغلامي	في تراجم أدباء الموصل في القرن الثالث عشر للهجرة
	ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء	أحمد الشهير بابن الخياط الموصلي	
	نكت الهميان	الصفدي	تاريخ النسخ ٧٧٤هـ
	شجرة النسب الشريف		(مجدول)
	تراجم الوجوه والأعيان المدفونين في بغداد وما يليها من البلدان	تعريب (جامع الأنوار في مناقب الأخيار) بالتركية لمرتضىٰ أفندي نظمي زاده. نقله إلىٰ العربية عيسىٰ صفاء الدين البندنيجي (ت١٢٨٣هـ)	

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
الطب والبيطرة	الطب الكلي	أبو سهل عيسىٰ بن يحيىٰ المسيحي	تاريخ النسخ ٧١٤هـ
	كتاب السموم ودفع مضارها	جابر بن حيان	
	منهاج البيان في ما يستعمله الإنسان	ابن جزلة الطبيب البغدادي	
	البيطرة الرومية		
الكيمياء	شرح المكتسب في زراعة الذهب	أيدمر بن علي الجلدكي	مجلدان
	الخواص الكبير	جابر بن حيان	
	الصيدنة	أبو الريحان البيروني	
الموسيقىٰ	مختصر في علم الموسيقىٰ	محمد بن محمد الجويني	
	الرسالة الفتحية في الموسيقىٰ	محمد بن عبد الحميد اللاذقي	
الفلك والرياضيات	شرح الدر المنثور في العمل بربع الدستور	الأصل للمارديني والشرح لابن المجدي	
	رسالة في الإسطرلاب	أمية بن عبد العزيز ابن أبي الصلت	
	رسالة في الإسطرلاب	جمال الدين بن محفوظ	
	تاج المداخل في النجوم	الغياثي	نسخة فريدة
موضوعات متنوعة	كتاب الأنواء	ابن قتيبة	
	كتاب الزينة	أبو حاتم الرازي (ت٣٢٢هـ)	من كتب الإسماعيلية النادرة. نسخة قديمة جدًّا
	شرح خطب الشيخ الرئيس ابن سينا	المسعودي	

الموضوع	العنوان	المؤلِّف	ملاحظات
	تفضيل الأتراك على سائر الأجناد	ابن حسّول	تاريخ النسخ ٦٤٩هـ
	كتاب في علم الكف	يعقوب بن إسحاق الكندي	
	منهل الصفا ومسرح الوفا في كشف الخفا عن ذات الشفا	محمد أمين العمري الموصلي	
	عيون الحقائق وإيضاح الطرائق وكشف الدك وإيضاح الشك في علم النواميس والمحاريق الكبرى والدخن والتعافين والنارنجيات والخواص والمجربات	أبو القاسم أحمد بن محمد العراقي	
	الفتوة العراقية لأهل الطريقة وجميع أهل الخرقة في المائة الحادية عشرة للهجرة		
	نصاب الاحتساب	السنامي	بضعة مجاميع من كتب الدروز

إنَّ استقراء الجداول السابقة يقود إلى ملاحظة سماتٍ تتعلق بالذخيرة المخطوطية العراقية، فتمنحها أهميةً خاصة تجعلُ من فقدانها كارثةً لا تتعلق بالعراق فحسب، بل بالمنطقة كلها وهويتها الثقافية. ومن هذه السمات أنَّ من بين مخطوطاتها مخطوطات بغير اللغة العربية - وإنْ كانت نسبتُها قليلة جدًّا - تعودُ لثقافات عاشت في كنف المحيط الثقافي العربي،

مما يضفي على الذخيرة العراقية المخطوطية سمةً خاصة. كما تظهرُ الجداول أهميةَ الخزانات الخاصة وكونها مصدرًا غنيًّا في رفد مخطوطات المتحف العراقي، وهذا يعني أنَّ العراق زاخرٌ بالخزائن الخاصة التي تضم عادةً أهم المخطوطات وأكثرها نُدرةً.

ثَمَّ أثر سلبي يمثلُ فقدانًا وإنْ كان بطريق غير مباشرة للتراث المخطوط، ويتعلق بمنهجية تصنيف هذه المخطوطات القائمة على تسمية موضوعات العلم بأسمائها التراثية القديمة. إنَّ هذا التصنيف لن يكون كافيًا في وقتنا الحاضر؛ لأنَّ هذه التصنيفات التقليدية العامة لموضوعات المخطوطات (اللغة، التاريخ، الطب، الكيمياء..) لا تعبِّر عن مضمونها الغني النوعي - في أكثر الأحيان - بالشكل والطريقة التي تُناسب الواقع العلمي والتقني في الوقت الحاضر، مما يجعلها بعيدةَ المنال ومعزولة، وأظهر مثال على ذلك تلك المخطوطات التي صُنِّفت في باب (موضوعات متنوعة - جدول ٤٠)؛ لأن المصنفين لم يتمكنوا من إدراجها تحت موضوع يحمل اسمًا من أسماء العلوم القديمة. وهذا التصنيف العمومي أضاع التوصيف الحقيقي للمحتويات النوعية الدقيقة لهذه المخطوطات، فـ(كتاب الأنواء) لابن قتيبة يمكن تصنيفه كمخطوط في (الميترولوجيا = علم الأرصاد الجوية).

ومن الجدول يمكن أن نلاحظ أن ثمة مجموعة أخرى من المخطوطات يمكن إدراجها في (الميثولوجيا).. وغير ذلك. إن التصنيفات الجديدة المقترحة - إلى جانب القديمة - لا يمكن إلا أن تستند إلى فريق خبراء يصفون المحتوى الحقيقي، وتُوَجِّهُ فهرستُهم الجديدة هذه بحثًا تراثيًّا أكثر دقةً وجدية وحداثة، وإلا فإن أثرًا سلبيًّا غير مباشر سيصيبُ (محتوى التراث المخطوط): هو عدم دقة معرفة محتوى مخطوط ما، مما يجعله مُضَيَّعًا ومفقودًا بالمعنى الجوهري.

دار المخطوطات العراقية (دار صدام سابقًا)

نوادر المخطوطات .. آلاف النسخ مهدَّدة بالفقدان تلفًا

أُنشئت دار صدام في عام ١٩٨٨م تابعة لدائرة الآثار والتراث بوزارة الثقافة والإعلام العراقية، وعُدَّت الدائرة المركزية المسؤولة عن المخطوطات في العراق. تألفت نواتُها الأولى من (٤٠٠٠) مخطوطة نادرة انتُقِيتْ وأُخذتْ من مخطوطات خزانة المتحف العراقي.

امتصَّتْ هذه الدارُ أكبرَ مجموعة من المخطوطات العراقية، وفيها أكبر عدد من المخطوطات النادرة والثمينة، وخاصةً أنَّ اختيارها كان من قِبَل خبراء. وقد جرت فهرسة (٤٠٢١٤) مخطوطة، وفي الدار مخطوطاتٌ بلغات أخرى.

جدول (٤١)

لغات المخطوطات في دار المخطوطات العراقية

التصنيف	عدد المخطوطات	التصنيف	عدد المخطوطات
العربية	٣٦٤٦١	الفارسية	٢٧٥٧
التركية	٧٨٦	الكردية	٢١٠

بمقارنة هذا الجدول مع معلومات جدول رقم (٣٦) الذي يسجل مخطوطات المتحف العراقي (بحسب لغاتها) سوف نجد أنها لئن كانت في المتحف العراقي - في الخمسينيات - أقل عددًا بكثير، لكنها كانت أوسع تصنيفًا من ناحية اللغات الأخرى!

وأما المخطوطات النادرة في الدار فهي شديدة الأهمية، إذ إن بعضها يرقى إلى القرن الهجري الأول، وربما إلى العهد الراشدي.

جدول (٤٢)

أندر وأقدم المخطوطات في (دار المخطوطات العراقية)

أثمن وأندر المخطوطات	أقدم مخطوطة تحمل تاريخ نسخها	نفائس أخرى
صفحات من القرآن الكريم مكتوبة على رق الغزال، يعود تاريخها إلى القرن الأول الهجري. ويقال إنها تعود إلى العهد الراشدي. وسبعة منها تُنسب إلى الخليفة علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ	رسالة أحمد بن الواثق إلى محمد بن يزيد التمالي النحوي يسأله فيها عن أفضل البلاغتين. وهي بخط الخطاط أبي الحسن علي بن هلال ابن عبد العزيز المعروف بابن البواب البغدادي. ولد ٣٥٠هـ / ٩٦١م وتوفي ٤١٣هـ/١٠٢٢م	معجم (المجمل في اللغة) لابن فارس. تاريخ نسخها ٤٦٦هـ كتاب نخبة الفكر في علاج أمراض البصر لأحمد ابن عثمان القيسي، توفي ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م

تُعد محتويات الدار ثروة هائلة القيمة المعنوية والمادية. إنَّ هذه الثروة فيها (٤٥٠٠٠) مخطوطة محفوظة في ظروف سيئة للغاية مما يعرضها للتلف السريع!

تكوَّنَتْ الدار من طرق الإهداء والشراء والاستيلاء، وضُمت إليها مخطوطات عدد من الخزائن العراقية الخاصة العريقة، وجرى فهرستُها وصدر لها (٢٣ مجلدًا)[1] من الفهارس.

(١) تمَّ إعداد هذه الفهارس من قِبَل أسامة ناصر النقشبندي مدير دار المخطوطات العراقية، سابقًا.

جدول (٤٣)

الخزائن العراقية الخاصة التي ضُمَّتْ إلى دار المخطوطات العراقية

مخطوطات خزائن بغداد الخاصة	
صاحب الخزانة	عدد المخطوطات
الأب ماري أنستاس الكرملي	١٣٠٠
الشريف حازم الأمين	١٩٧
المؤرخ عباس العزاوي	٣٧٣٩
صادق كمونة	٥١٤
يعقوب سركيس	٦٥٨
الناشر قاسم محمد الرجب	٤١٠
هاشم الآلوسي	٢٦٨
عبد الرزاق الآلوسي	٣٦٨
النائب والنقشبندي	٥١٨
علي الخاقاني	٣٥٠
محمد حسين آل ياسين	٩٩
أحمد نيازي	٤٣٤
عبد الله السنوي	٢٢٤
يوسف مسكوني	٦١
عز الدين مصطفى صفوت	٥٦
مصطفى جواد	١٩
كوركيس عواد	٣٦
خليل الورد	٨٤
مصطفى محمد صالح السهروردي	١٧٣

صاحب الخزانة	عدد المخطوطات
حسين علي محفوظ	٢٧٣
الخطاط هاشم محمد الخطاط	٢٧٣
هاشم محمد الرجب	١٢
مشكور مهدي الأسدي	٧٥
عبد المنعم المصرف	٢٣٠
إبراهيم عطار باشي	٣٢
محمد الخالصي	٣٧٦
مخطوطات خزائن الموصل الخاصة	
سعيد الديوجي (الجمَّال)	٢٥٨
عبيد الأتروشي	٢٢٤
عبد الرزاق الفخري	١٨٥
عبد المطلب عبد الغني النقيب	٧٨
نوري فيض الله النقيب	٢٠
عزيز عبد الله الحسو	١٠
مخطوطات خزائن النجف[1] الخاصة	
كاظم شريف القرشي	١٧٣
عز الدين الجزائري	٢٤١

(١) تُعد النجف مدينةً مُعبأة بالمخطوطات، وفيها كثيرٌ من المخطوطات التي تعود للقرون الهجرية الأولى، ومنها (كتاب الاستبصار) للطوسي، وهي نسخة بخط المؤلف. ومن الجدير ذكره أنَّ مؤسسة الإمام كاشف الغطاء قامت بأرشفة وفهرسة مخطوطات النجف وكربلاء، وقد اتبعتْ بذلك خطةً ناجحة مكنتها من أرشفة الخزائن الخاصة وتصويرها وحفظها على أقراص CD . لقد تمكنت من تصوير أكثر من (٤٠٠٠) مخطوط مهم ونادر في برنامج على الحاسوب يسهل الرجوع إليه. وقامت بتصوير (٣٥٠٠٠ مخطوط) من كل العراق.

صاحب الخزانة	عدد المخطوطات
سيد مهدي الخراساني	١٩٥
المكتبة الحسينية	١٠٠٤
محمد البلاغي	٥٨٨
محمد صادق الصدر	٢٨١
خزائن كربلاء الخاصة	
سلمان هادي الطعمة	١٣٨
حسن عبد الأمير	١٢٧
محمد حسين الأديب	٢٢١
محمد صالح ضياء	١٨٥
محمد حسن الطبطبائي	١٤٧
محمد علي مرتضى	١٧٤
خزائن خاصة من مدينة أربيل	
مسعود محمد	٢٨٧
محمد رشاد المفتي	٤٢٣
خزائن خاصة من مدينة كركوك	
رؤوف النقيب	١٩٩
الملا صابر الكركوكلي	٥٠٠
محمد مصطفى سعيد	١٥٩٢
خزانة خاصة من مدينة سامراء	
مهدي محمد العسكري	٢٥٨
خزانة خاصة من مدينة دهوك	
حمدي عبد المجيد السلفي	١٠٤
خزانة خاصة من العمارة	
ضياء شكارة	٩٣

الاحتلال الأميركي ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

فقدان خزائن بأكملها.. غموض في واقع المخطوطات!

لم يعدُ الاجتياح المغولي للعراق في القرن السابع الهجري وما أسفر عنه من ضياع المخطوطات حدثًا وحيدًا في تاريخ العراق، فلم يكد القرنُ الحادي والعشرون يُطلُّ علينا حتىٰ داهم العراقَ حدثٌ اجتياحيٌّ جديد تكون فيه (خزائنُ المخطوطات) الهدفَ التالي للغزاة في مدينة بغداد، كأنَّ التاريخ لم يتقدم إلىٰ الأمام ما يزيد علىٰ سبعة قرون، لكنَّ الواقع العالمي الجديد يحمل مستجداتٍ اتصالية فائقة، جعلتْ من مقولةَ أنَّ العالم أصبح صغيرًا مقولةً صحيحةً، فكثافة الإعلام وقنوات الاتصال وجرأة الأقمار الصناعية، رفعَتْ من سرعة وصول الأخبار ومن وثوقيتها، وعلىٰ الرغم من ذلك فما زال كثيرٌ من الغموض يظلل صناديقَ المخطوطات المُخَبَّأة وغير المُخَبَّأة في بغداد!إضافةً إلىٰ المخطوطات التي فُقِدَتْ في حرب الخليج الأولىٰ والثانية، وهي من نفائس المخطوطات ونوادرها[1].

تابع الإعلامُ وقنواتُهُ ما حدث داخل بغداد، فشاهدَ العَالَمُ علىٰ فضائياته ومواقعه الإلكترونية اجتياحَ الدبابات للمتحف العراقي بُعيد الاحتلال الأميركي للعراق حين أخذتْ بقصف خزائن المخطوطات وتدميرها. كان هذا هو الحدث المُعلَن أو المرئي، أمَّا الآثار التي نالتْ من (التراث المخطوط) فكانت قد سبقت الاحتلال بسنوات قليلة، حين بدأت الولايات المتحدة بتهديد العراق، فلم تلبث أن بدأت تظهرُ حوادثُ فقدانٍ

---

(١) كان منها (٣٦٤) مخطوطة من نوادر المخطوطات، ومنها علىٰ سبيل المثال: سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي، تلك النسخة النفيسة التي نُسِخَتْ عام٤٨٢هـ من مقابلة مع أسامة النقشبندي مدير عام دار المخطوطات العراقية سابقًا، في مجلة ثقافة وفنون، العدد ١٢٧، ١٤ نوفمبر ٢٠٠٤، شوال ١٤٢٥هـ.

للمخطوطات نتيجة لسرقتها وتهريبها خارج العراق،ويبدو أنَّ عصابات منظمة شرَعَتْ في تهريب المخطوطات في عملٍ شبه مبرمج، أسفرَ عن فقدان عدد هائل من المخطوطات، «كان من بين المخطوطات التي فُقِدَتْ حينذاك (مخطوطات كلية الآداب) في جامعة بغداد، ومخطوطات مكتبة الأوقاف في الموصل، هُرِّبت جميعًا خارج العراق»[١].

اتسعتْ حركةُ سرقة المخطوطات وتهريبها وانتظمتْ إلىٰ حد كبير مع تراخي عين الرقابة علىٰ هذه الثروة الوطنية التاريخية العظمىٰ والتركيز علىٰ الشأن العسكري المباشر، فما كان من الدولة العراقية حينذاك إلا أن قامت بتمويل حملة لشراء المخطوطات، وأعادتْ بذلك جمع (المخطوطات العراقية)، فبلغ عددُ المخطوطات المُستعادة (٤٧٠٠٠ مخطوط) تمثل (١٥٠٠٠٠ عنوان) حُفِظَتْ في (٨٢ خزانة) تضم هذه الخزائن مخطوطات المجمع العلمي العراقي، ومخطوطات الجامعات العراقية (بغداد، الموصل، البصرة، الجامعة المستنصرية..) والمكتبات المركزية، نُقلت جميعها إلىٰ (دار المخطوطات) وصُورت بالميكروفيلم في (١٠ ملايين صفحة) في حين حُفِظَتْ مجموعات أخرىٰ علىٰ أقراص مدمجة، أُنجِزَ كلُّ ذلك قبل الاجتياح الأميركي وتمَّ حفظ المخطوطات في (٧٠٠ صندوق) نُقلت إلىٰ ملجأ مُحصَّن ضد القصف الذري.

الجيش الأميركي يجتاح جبهة المخطوطات

بدأت المتاحف والمكتبات تتعرض لسرقات متواصلة بعد دخول الجيش الأميركي بغداد، أشدُ الخسائر فداحةً تلك التي أصابتْ مكتبةَ الأوقاف المركزية وذخيرتها المخطوطية التي تُقَدَّر بـ (٥٠٠٠) مجلد مخطوط.

---

(١) المرجع السابق.

جدول (٤٤)

مخطوطات مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد (المفقودة)

في أبريل - نيسان ٢٠٠٣

العنوان	المؤلِّف	الرقم
الدر المنظوم في فضل الروم	أحمد محمد الحموي سنة ١٠٧٩؟ حُقق من قِبَل أحمد عدنان الحمداني لكنه لم يُنشر بسبب كارثة الاجتياح الأميركي	٢٧٩٦-١٩
الإعلام بفضل الشام	برهان الدين الفزاري المعروف بابن الفركاح (ت٧٢٩). حقق الشيخ الألباني فضائل الشام ودمشق على نسخة الظاهرية وبرلين	٤٨٦٦-٣
نشر اللطائف في قطر الطائف	ابن فهد المكي محمد جار الله ابن محمد الهاشمي (ت٩٥٤). نُسخ سنة ١٠٧٩	٤٧٩٦
الجواهر الثمينة في فضل المدينة	كبريت المدني محمد بن عبد الله الحسيني. تاريخ تأليف الكتاب ١٠٤٨هـ. حقّقه ونشره محمد إسماعيل (١٩٩٦)	
باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس	ابن الفركاح برهان الدين (ت٧٢٩). نشر سنة ٢٠٠٥ بتحقيق أحمد حامد	٣٨٠٩-٣
تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام	تقي الدين بن محمد احمد القاسمي الحسيني (ت٨٣٢). نشر المستشرق وستنفلد قسمًا منه في كتاب المنتقى في أخبار أم القرى	٨٧٠

اشتعلتْ الحرائق في مبنى مكتبة الأوقاف في أبريل - نيسان (٢٠٠٣م) وفُقِد أكثر من نصف المخطوطات، إما التهمتها النيران، أو أنَّ النيران شكلتْ غطاءً لسرقتها!

أمَّا مجموعةُ المخطوطات المهمة والمودعة في الدار فنُقِلتْ إلى الملجأ

الذري[1]. إنَّ مخطوطات الدار تعد أكثر أهميةً لأنها جُلِبَتْ من نوادر مخطوطات خزانة المتحف العراقي ونفائسها.

قُدِّرَ عدد مخطوطات دار صدام بـ(٣٨٠٠٠) مخطوط في عام ١٩٨٨م، وفي عام ٢٠٠٣م قفز عددها إلى (٥٠٠٠٠) وقيل (٧٠٠٠٠) مخطوط، وذلك بحسب جميع المصادر التي قامت بالإحصاء (ديب، ألبن، هيلي، ميتينيير). بعضُ هذه المخطوطات فُهرس وبعضها ما زال في المستودعات. أمَّا سبب هذا الازدياد لا سيما في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، فهو ما جُلِبَ إلى الدار من الخزائن الخاصة وخزائن بعض المؤسسات الصغيرة.

حاول جنودُ الجيش الأميركي اختراق ملجأ المخطوطات بعد دخولهم بغداد فلم يستطيعوا، بسبب مواجهة المواطنين العراقيين لهم ومنعهم من الدخول.

لكنَّ الأميركيين عاودوا المحاولة وتمكنوا من دخول ملجأ المخطوطات مع مراسلي وكالات الأنباء العالمية ومندوبي الصحف والفضائيات، وفُتح الملجأ والصناديق، وتأكدوا أنها مخطوطات، وفي اليوم التالي أرادوا نقل هذه المخطوطات إلى قواعدهم، لكنَّ المواطنين تصدوا لهم من جديد، وحاصروا الكولونيل قائد «المفرزة» الأميركية فاضطر للانسحاب من المكان.

لم يكن الكولونيل المكلف بالتحقيق في (سرقة المخطوطات) ! هو الأداة الوحيدة للدخول إلى خزائن (التراث المخطوط)، بل كان لا بُد من تمثيل شيءٍ من الوصاية الأميركية على هذا التراث، فقام فريقٌ من الخبراء من مكتبة الكونغرس بزيارة موقع المخبأ، وعاينوا المخطوطات وطريقة التخزين والظروف المواكبة لذلك. ثم أقرَّ الخبراء أن المخبأ مجهز ومعتنى

---

(١) أرسل أسامة النقشبندي مدير دار المخطوطات العراقية سابقًا رسالةً بالفاكس إلى العالم معلنًا أنه تمَّ تأمين المخطوطات العراقية.

به، وأن درجات الحرارة والرطوبة ملائمة لحفظ المخطوطات، وأن المخطوطات محفوظة في صناديق من الألمنيوم السميك(١).

صُدِّرَتْ هذه الوصايةُ الأميركية علىٰ المخطوطات العراقية إلىٰ الإعلام وإلىٰ العالم، والمأمول أن تكون هذه المخطوطات في مكانٍ أمين حقًّا، فلا تطالها الآثار السلبية فقدانًا أو ضياعًا أو تلفًا بسبب سوء الحفظ، فقد كان في (دار المخطوطات العراقية) ما يزيد علىٰ (٤٥٠٠) مخطوط موضوعة في ظروف غير ملائمة البتة لحفظ مثل هذه الكنوز مما يجعلها عرضة للتلف السريع، وبينها نوادر النوادر من المخطوطات مما يعود تاريخ نسخ بعضها إلىٰ أوائل القرن الثالث الهجري، ناهيك عن المخطوطات التي تتناثر في أنحاء العراق عند أُسر بغدادية ونجفية تقبع في ظروف حفظ غير مواتية، سرعان ما ستكون عرضةً للتلف. وعلىٰ الرغم من وجود قانون لحماية المخطوطات في العراق ومتابعتها، فإنه لا يزال حبرًا علىٰ ورق.

إنَّ وجود الجيش الأميركي بالقرب من خزائن المخطوطات أضاف إلىٰ مهمته العسكرية مهمةً أشدَّ بطشًا، فالعرباتُ المدرعة كان لها مهمات غير عسكرية في بعض الأحيان، كانت تحمل المخطوطات بمساعدة شبكات اللصوص (المحلية، والعربية، والعالمية) وتنقلها إلىٰ قواعدها، ومن ثَمَّ إلىٰ الجهة التي طلبتها. خلال ذلك عثرتْ القوات الأميركية علىٰ مخطوطات عبرية قاموا بنقلها إلىٰ قواعدهم، إلىٰ أنْ وصلت إلىٰ إحدىٰ الجمعيات اليهودية في نيويورك(٢).

ثمة ضياع وتدمير أصاب ثروة المخطوطات العراقية، بعض هذه المخطوطات بدأت تظهر في بلدان عربية مجاورة وفي أوروبا. وبعضها وصل

---

(١) من تقرير الصحافي الأميركي جيفري روبر ٢٠٠٣ (العراقيون حموا المخطوطات من سرقة الجيش الأميركي).

(٢) ثمة وثائق في هيئة الآثار العراقية سجلتْ هذا الأمر.

إلىٰ حلب خلال سنوات ما قبل الاحتلال بقليل! أمّا الآن وقد (تكسَّرَت النِّصالُ علىٰ النصال) وتحوَّلَتْ حلب إلىٰ ما يشبه بغداد، فإن سؤالنا: أين أصبحت هذه المخطوطات؟ لا بُدَّ أنْ يكون إلىٰ جانبه سؤالٌ آخر: وأين ذهبت المخطوطات الحلبية أيضًا ؟

واستكمالًا لحوادث سرقة وفقدان المخطوطات، قام الجيش الأميركي بتكليف الكولونيل (ماثيو بوجدانوس) بالتحقيق في سرقة الآثار العراقية ومنها (المخطوطات)! وقد حاول الكولونيل الاستيلاء علىٰ ثلاثين صندوقًا من المخطوطات التي خُبِّئتْ في الملجأ الذري كي يعيدها إلىٰ المتحف، لكنَّ المواطنين أوقفوه وأوقفوا دباباته ومنعوا نقل المخطوطات !

إنَّ ما حدث بُعيد دخول الجيش الأميركي إلىٰ بغداد بشأن ذخائر (التراث المخطوط) التي فُقِدتْ أمرٌ يحتاج إلىٰ استقراءات طويلة وتحقيقات ومُتَابَعَات حثيثة.

* * *

خاتمــة

ماذا علينا أن نفعل ؟

يحتـاج التراث اليـوم إلى مرجعيـة إسـتراتيجية، لا تُعْنَىٰ بالقضـايا البحثية والنشرية فقط، بل بتسجيل الأخطـار المحدقة به، والإعلان عنها، والإسراع بالحدِّ منها، وإيقافها.

لقد عبرنا سِراعًا في أحداثٍ استغرقتْ قرونًا طِوالًا، وتركت آثارًا عميقةً ومتراكبة وطويلة الأمد. كان هناك محاولةٌ لاستقرائها، فللحروب آثارُها علىٰ التراث المخطوط وخزائنه، لكنْ ما إنْ تبتعد تلك الآثارُ الساخنة الحارقة، حتىٰ تنبسط مرحلةٌ من العبثية والإهمال والتفريط. يقدم لنا التاريخُ عبر وقائعه المُسجَّلَة كلَّ احتمالات تلك الآثار، في بعض الأحيان كانت تسبقُ الحربَ أحداثُ بناءٍ معرفي استند إلىٰ (الخزائن المخطوطية العظيمة) ثم أنتج خزائنَهُ الجديدة لاحقًا، غير أنَّ الفراغ العسكري الهائل الذي كان قائمًا في بعض أحيانِ التاريخ جعل هذه الخزائن تتهاوىٰ. أمَّا في القرون المتأخرة فإنَّ السياسةَ أضحَتْ تلعبُ دورًا سلبيًّا في التهاون تجاه هذا التراث المخطوط وإهداره.

ومثلما كان للحروب الخارجية عنفُهَا المُدمِّر علىٰ التراث، كان للسنوات الباردة أحيانًا تأثيرٌ مُجَمِّدٌ ومُضَيِّع أيضًا. قدِمَ التتار في حملتين، فدمَّروا معظم

الخزائن ومخطوطاتها، لكنْ، كان هنـاك إعادة واستمرارية. وكان للحروب الصـليبية تأثيرُها المديد فلم تكدْ تتنـاهىٰ حـتىٰ تشَكَّلَتْ كبرىٰ خـزائن (المخطوطات العربية) الشهيرة في عواصم الاستشراق الأوروبية.

إنَّ ما يمكن أن أختمَ به وإن كان من (البديهيات) غير أنَّ الوقوف عنده أمرٌ مهمٌّ في زمنٍ تتكاثفُ أحداثُهُ وتستعرُ، هو هذه التوصيات:

- وضع استراتيجية صلبة هدفُها استرداد هذا (التراث المخطوط) بأي شـكل من الأشـكال، استنادًا إلىٰ حيثيات قانونية، أو ظروف أممية، وعلىٰ أقل تقدير الحصـول علىٰ نُسخٍ إلكترونية من المخطوطات المُهجَّرَة إلىٰ القارات البعيدة، وإعادة بناء (الخزائن العربية) بالاعتماد ما أمكن علىٰ ما تشير إليه كتبُ التاريخ والفهارس الموجودة.
- إعادة المخطوطات إلىٰ خزائنها، بعـد ترميم تلك الحواضن القديمة الأصلية (المدارس، وبعض الزوايا، وبعض المساجد..) وإعادة الوظيفة الخزائنية لها، وإنْ كان لا بُد من خزانة مركزية، فليكن ذلك عن طريق النسخ الإلكتروني والأقراص «الليزرية».
- وضع خطة للبحث عن الدفاتر والقوائم والفهارس القديمة التي أعدَّها القيِّمون علىٰ الخزائن، وطبعها، فهي أساس البحث عن المخطوطات المفقودة ومتابعتها. (من هذه الفهارس: فهرس الدكتور محمد أسعد طلس، وفهرس الشيخ محمد الكحال، والتذكرة الطاهرية للشيخ طاهر الجزائري).
- لم تُعانِ (خزائن المخطوطات العربية) من الفقدان المريع لمخطوطاتها بتأثير الحروب والانحطاط فقط، بل عانتْ معظمُ المخطوطات الباقية وما زالتْ - وربما ازداد الآن الأمرُ سوءًا ! - من سوء الحفظ وتعرُّضها للرطـوبة والتـلف والاهـتراء والتكسُّر. لذا لا بد من تشـكيل مشـفىٰ

للإنقاذ ليس في المنطقة العربية فحسب، بل حيثما وجدت في العالم، ومنها تلك الخزائن الضخمة القابعة في شرق آسيا، وقد علمتُ أن خزائن ضخمة في باكستان تتعرض للاندثار تلفًا. ولا بد أن يكون لهذا المشفى وظيفة إعلامية تتولى الإعلان عن الخزائن المريضة والمتهاوية، وجلب الانتباه لها، ورصد الميزانيات لإنقاذها، ومتابعة ذلك قانونيًّا أيضًا، فهذه الخزائن تقبعُ داخلَ إداراتِ دولٍ معينة.

- الاعتماد على ما قدَّمَهُ بعض الباحثين المبدعين[١] من آليات لاسترداد (نصوص) المخطوطات المفقودة كليًّا وبكامل نسخها، وذلك باسترداد نصوصها وإعادة تجميعها من مخطوطات أخرى وردتْ هذه النصوص المفقودة فيها لسبب من الأسباب، وذلك اعتمادًا على برمجيات حاسوبية ومواقع «تراسل» وتصوير، وطرائق عالية التقنية.

- إعلان مدينة حلب مدينةً مهددةً بفقدانٍ كاملٍ لتراثها بشكل عام، ولتراثها المخطوط ووثائقها و«أراشيفها» وسجلاتها القديمة داخل مباني المدينة القديمة وتكويناتها.

- إيجاد آلياتِ مُتابَعَة نوعية للتراث المخطوط في فلسطين. ففي هذه المرة لم نكن أمام عدو تقليدي. إنه لا يقف على الجبهات العسكرية فقط، بل استمر منذ أكثر من نصف قرن في تغيير هُويّة المكان، وفي محاولة (تصنيع) تاريخ له، ورمي (جذوره) في المكان! ولئن كان هذا الكيان قد غيَّرَ حقًّا وما زال يغيّر في هُويّة المكان (المعمارية والديموغرافية).. فهل سيُغيّر في الهوية التاريخية ويُطلق دموعَهُ أمام حائط مبكى لخزانة مخطوطات تعود لأجداده !

---

(١) كتب التراث بين الحوادث والانبعاث، ص٢٩ وما بعدها.

حقًّا إن اهتمامًا قد توجه إلىٰ (التراث المخطوط) في العقود الأخيرة، وتجلىٰ ذلك إمَّا بتحقيق كثير من (المخطوطات)، أو بارتفاع وتيرة الحركة الطباعية لبعض المصادر التراثية المشهورة، أو بإصدار الموسوعات التراثية. كل الجهود السابقة تحتاج إلىٰ مرجعية إستراتيجية، يكونُ في برنامجها ليس القضايا البحثية والنشرية فقط، بل تسجيل كل الأخطار المحدقة بالتراث المخطوط أيضًا، خاصةً في المناطق الساخنة، والإعلان عنها و(مخاطبة العالم) بذلك، والإشارة إلىٰ الأهمية القصوىٰ لهذا التراث الإنساني، وخلال ذلك اللجوء إلىٰ أسرع الطرق العملية لإيقاف هذه الأخطار، سواءً كانت تدميرًا بتأثيراتٍ مُباشرة للحروب، أو فقدانات وضياعات.

* * *

كشاف الجداول

١- علاقة الحروب التاريخية بالتراث العربي المخطوط ٢١
٢- مخطوطات مغاربية في الخزانة الظاهرية (انتقال المخطوطات) ٣٢
٣- المدارس (بوصفها أولى خزائن المخطوطات في حلب) في القرنين السادس والسابع الهجريين ٥٦
٤- بعض خزائن المخطوطات التي فُقِدَتْ في هجوم التَّتر ٦٤
٥- عائلات حلب التي ارتبط اسمها بخزائن مخطوطات ٦٦
٦- خزائن المخطوطات في مدارس حلب (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ٦٨
٧- المخطوطات في مكتبات الأوقاف بمدينة حلب حتى عام (١٣٥٩هـ/١٩٤٠م). ٦٨
٨- خزائن المخطوطات في ولاية حلب (نحو ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) وتاريخ إنشائها (مفقودة كليًا أو جزئيًا) ٦٩
٩- بعض المخطوطات النادرة المفقودة من خزانة المولوية (كانت موجودة سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) ٧١
١٠- أهم المخطوطات الباقية في تكية الشيخ أبي بكر الوفائي بحلب ٧٣
١١- ما تبقى من مخطوطات الزاوية الوفائية (حتى منتصف الخمسينيات) ٧٤
١٢- مخطوطات في خزانة الزاوية الإخلاصية (كما وردت في وقفيتها) ٧٥
١٣- أهم مخطوطات خزانة المدرسة العثمانية ٧٧
١٤- مخطوطات مؤلفات محمد الكواكبي الحلبي (مفقودة) ٧٨
١٥- ما بقي من مخطوطات خزانة المدرسة الكواكبية (حتى منتصف الخمسينيات). ٧٩
١٦- مخطوطات من خزانة المدرسة الكواكبية (كما وردت في كتاب وقفيتها) ٨٠
١٧- مخطوطات نادرة من الخزانة الأحمدية ٨٢
١٨- ما تبقى من مخطوطات الخزانة المنصورية حتى نهايات القرن التاسع عشر وبداية العشرين (فُقِدَتْ نحو خمسينيات القرن الماضي) ٨٦
١٩- أهم مخطوطات الخزانة الإسماعيلية ٨٨
٢٠- نفائس مخطوطات الجامع الأموي بحلب (مفقودة) ٩٠
٢١- أهم مخطوطات الجامع الأموي بحلب ٩١
٢٢- الخزائن التي نقلت إلى خزانة الخسروية ١٣٢٨هـ/١٩١٩م ٩٣

٢٣- الخزائن التي جُمِعَتْ في خزانة المدرسة الشرفية ٩٦
٢٤- عدد مخطوطات الخزائن الحلبية ٩٧
٢٥- أقدم المخطوطات في خزانة المكتبة الوقفية ٩٨
٢٦- المخطوطات حين إعادتها من المكتبة الوطنية إلى المكتبة الوقفية (الشرفية) ١٠١
٢٧- مدارس دمشق بوصفها أولى خزائن المخطوطات حتى نهايات القرن السابع الهجري: ٩٤ مدرسة (٩٢ مدرسة فقهية ومدرستان للطب) ١٠٥
٢٨- التطورات التاريخية للمكتبة الظاهرية ١١٢
٢٩- فهارس مخطوطات المكتبة الظاهرية/المجمع العلمي العربي بدمشق ١١٨
٣٠- بعض المخطوطات القديمة من خزانة الظاهرية ١١٩
٣١- خزائن (التراث المخطوط) العامة والخاصة في المدن الفلسطينية قبيل النكبة . ١٢٦
٣٢- مخطوطات نادرة من خزانة الأقصى ١٢٧
٣٣- مصير بعض الخزائن الخاصة للتراث المخطوط في فلسطين قبيل النكبة ١٢٨
٣٤- خزائن مخطوطات الطوائف الدينية والبعثات التبشيرية في فلسطين (فيها مخطوطات عربية وأكثرُها يوناني ولاتيني) ١٣٠
٣٥- نوادر مخطوطات الخزانة الخالدية (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) ١٣٢
٣٦- مخطوطات المتحف العراقي بحسب لغاتها ١٤٢
٣٧- المخطوطات المشتراة من خزائن عراقية خاصة لصالح المتحف العراقي (فقدان ما تبقى من الخزائن بسبب بيعها من قِبَل الورثة) ١٤٣
٣٨- المخطوطات المهداة إلى خزانة المتحف العراقي ١٤٤
٣٩- مخطوطات مُصادرة وُضِعَتْ في المتحف العراقي ١٤٥
٤٠- نوادر مخطوطات خزانة المتحف العراقي (أثر سلبي تصنيفي يُبْعد المحتوى عن روح العصر) ١٤٥
٤١- مخطوطات دار المخطوطات العراقية (دار صدام سابقًا) بحسب لغاتها ١٥٣
٤٢- أندر وأقدم المخطوطات في دار المخطوطات العراقية ١٥٤
٤٣- الخزائن العراقية الخاصة التي ضُمَّتْ إلى دار المخطوطات العراقية ١٥٥
٤٤- مخطوطات من مكتبة دار الأوقاف المركزية (المفقودة) في أبريل/نيسان ٢٠٠٣م . ١٦٠

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

- أزهار الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة، القاهرة، ١٩٥٦.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ابن شداد عز الدين (تاريخ مدينة دمشق)، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، ١٩٥٣م.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ابن شداد عز الدين (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ابن شداد عز الدين، ج١، ق١، تحقيق يحيىٰ زكريا عبارة، ط٢، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ٢٠٠٦م.
- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، راغب الطباخ، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٩٢م.
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي، عمان، ١٩٧٣.
- أين مخطوطات العراق؟ لماذا قصف الأميركيون المتحف العراقي؟ أسامة النقشبندي، مجلة (ثقافة) ١٤ نوفمبر ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ، العدد ٤٣٠٧٧.
- البداية والنهاية في التاريخ، ابن كثير القرشي الدمشقي، مكتبة دار المعارف، بيروت، ط٣.
- برنامج المكتبة الخالدية ١٩٠٠.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، نقله إلىٰ العربية، يعقوب السيد بدر، ورمضان عبد التواب، دار المعارف، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- تاريخ الإسلام الكبير، الحافظ الذهبي، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.
- التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي، رشيد الزوادي، مجلة الحضارة الإسلامية، وهران، الجزائر، ١٩٩٣م.
- حلب في مئة عام، فؤاد عينتابي ونجوىٰ عثمان، ط١، جامعة حلب، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- خطط الشام، محمد كرد علي، ط٢، دار العلم للملايين ١٩٦٩-١٩٧٢م.
- الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر النعيمي، دمشق، ١٩٤٨.

- دُور العلم في مدينة حلب في العهد الأيوبي، لمياء الجاسر (ندوة الحركة العلمية والأدبية في حلب في العهد الأيوبي) ٨-٩-١٠ ذو القعدة ١٤٢٧هـ/ ٢٨-٢٩-٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٦م، حلب، الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية.
- دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها، محمد أسعد طلس، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م٢٠، ١٩٤٥، م٢١، ١٩٤٦.
- دور المكتبات في اللقاء الفكري الإسلامي المسيحي، المطران يوحنا إبراهيم (ندوة دور المكتبات والتوثيق في الثقافة الإسلامية) حلب، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها إلى العربية عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥.
- الصحوة الإسلامية في الأندلس اليوم (جذورها ومسارها)، كتاب الأمة، ١٤١٢هـ.
- طوق الحمامة في الألفة والأُلاف، ابن حزم الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٦م.
- العراقيون حموا المخطوطات من سرقة الجيش الأميركي يوم الاحتلال، تقرير (جفري روبر) عن (دار المخطوطات العراقية) ٢٠٠٣م.
- الفتح القسي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، القاهرة، ١٩٦٥م.
- فهرس مجاميع المدرسة العمرية في دار الكتب الظاهرية، ياسين السواس، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، ط١، ١٩٨٧.
- فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (علم الهيئة وملحقاته) إبراهيم خوري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، ط ١٩٦٩.
- الفهرست، محمد ابن إسحاق النديم، تحقيق ناهدة عباس عثمان، دار قطري بن الفجاءة، ط١، ١٩٨٥م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت.
- كتاب التاريخ الغياثي، عبد الحميد الدجيلي، سومر ٦ (١٩٥٠).
- كتب التراث بين الحوادث والانبعاث، حكمت بن بشير بن ياسين، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٤هـ، الدمام - السعودية.
- الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ربحي مصطفى عليان، المنامة: بيت القرآن، ١٩٩٦م.

- كنوز الذهب في تاريخ حلب، سبط ابن العجمي الحلبي (مجلدان) ط١، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٧م.
- لسان العرب، ابن منظور المصري، دار المعارف، ج.م.ع (ح.ر.ب).
- مأساة دار صدام العراقية ما بين الغزاة واللصوص، محمود السيد دغيم، مجلة الوسط (ملحق جريدة الحياة اللندنية).
- مخطوطات ثمينة في خزانة المتحف العراقي، عبد الحميد الدجيلي، سومر ٧ (١٩٥١).
- مخطوطات دار الكتب الظاهرية، عمر رضا كحالة، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١، ج١، ١٩٥٥م.
- مخطوطات الظاهرية، محمد مروان مراد، مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٤٩٣.
- المخطوطات العربية في فلسطين، خيرية قاسمية، مجلة المورد العراقية، مج٥، العدد (١).
- المخطوطات العربية في فلسطين، صلاح الدين المنجد، بيروت ١٩٨٢.
- المخطوطات في مكتبات الأوقاف في مدينة حلب، سامي الدهان، مجلة الجامعة الإسلامية، ربيع الأول، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.
- مخطوطات الكرمليين في خزانة المتحف العراقي، كوركيس عواد، سومر ٧ (١٩٥١).
- مخطوطات المتحف العراقي ببغداد، كوركيس عواد، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الأول، رمضان، ١٣٧٤هـ / مايو، ١٩٥٥.
- المخطوطات وخزائنها في حلب، محمد أسعد طلس، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، مج١، ج١، مايو ١٩٥٥م.
- مدارس حلب الأثرية (تاريخها وعمارتها) لمياء الجاسر، دار الرضوان، حلب، ٢٠٠٠م.
- مشكلات التراث العربي، صلاح الدين المنجد، مقال، مجلة عالم الكتب، المجلد (١)، العدد (٢)، شوال ١٤٠٠هـ.
- المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة (١٧٩٠-١٩٣٠)، محمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مسلسل الدراسات الببليوغرافية، مطبعة فضالة المحمدية، المملكة المغربية، ١٩٨٩م.
- معجم السماعات الدمشقية المنتخبة، من سنة ٥٥٠هـ حتى سنة ٧٥٠هـ، (ستيفن ليدر، ياسين محمد السواس، مأمون الصاغرجي). منشورات المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٩٦م.

- المعجم الفلسفي المختصر (دار التقدم)، موسكو، ترجمة توفيق سلوم، ١٩٨٦م (ح.ر.ب).
- مقدمة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، طبعة بولاق.
- المكتبات الإسلامية الوقفية في حلب، محمد عدنان كاتبي (ندوة دور المكتبات والتوثيق في الثقافة الإسلامية) ٩-١٠ جمادىٰ الثانية ١٤٢٧هـ/ ٥-٦ يوليو (تموز) ٢٠٠٦م، حلب، الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية.
- المكتبات العربية في العصر العباسي، ف. كرنكوف؛ ترجمة محمد بن فارس الجميل، العصور، مج٤، ج٢، ١٩٨٩.
- المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها، محمد ماهر حمادة، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١.
- المكتبات في حلب، سلمان قطاية، مجلة عاديات حلب، س٢.
- المكتبة الوقفية بين عراقة الماضي وتطلعات المستقبل، محمود مصري (ندوة دور المكتبات والتوثيق في الثقافة الإسلامية) حلب، الأمانة العامة لحلب عاصمة الثقافة الإسلامية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- من تاريخ المكتبات في البلدان العربية، خيال محمد مهدي الجواهري، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٢.
- موسوعة حلب المقارنة، محمد خير الدين الأسدي، أعد فهارسها محمد كمال، جامعة حلب، ط١، ١٩٨٤م.
- الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
- نفائس المكتبة الخالدية في القدس الشريف، عبد الله مخلص، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج٤، ١٩٢٤.
- نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل البالي الحلبي الشهير بالغزي، تحقيق شوقي شعث ومحمود فاخوري، دار القلم العربي بحلب، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- يتيمة الدهر، الثعالبي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣م.

* * *

المحتويات

كلمة ٥

تقديم: د. فيصل الحفيان ٧

تمهيد: التراث بين الخوف منه والخوف عليه ١٣-٥٠

في البدء.. .... ١٣

الحرب .. من الحدث إلى المعنى ١٦

الحرب .. حرب على الإنسان وتراثه ١٨

من حروب التاريخ إلى حروب الحاضر ٢٢

الحرب على جبهة المخطوطات .. حرق وإغراق ٢٥

الإرهاب الفكري.. حرب من نوع آخر ٢٨

الحروب الأخيرة .. سرقة التراث لسرقة التاريخ والحاضر .. ٣٣

الصادَّات التي امتصَّتْ خطر اندثار المخطوطات ٣٦

تأسيس خزائن التراث الكبرى قبيل الحروب ٤٣

العرب والغرب.. فرق التعامل مع تراث الآخر ٤٥

الفصل الأول

عاصمتا التراث المخطوط في سورية ١٢٠-٥١

(حلب ودمشق)

مدينة حلب بدون مخطوطاتها ! ٥٢

التَّتر وخزائن التراث المخطوط.. بين الإحراق والضياع ٦١

البيئة المجتمعية الحاضنة للتراث المخطوط.. إحدى الصادَّات التي خفَّفت من أثر الحروب ٦٤

خزائن التراث المخطوط في ولاية حلب العثمانية.. ليست الحروب
وحدها: الإهمال، النهب، التفريط ٦٧
المكتبة الوقفية.. المآل ما قبل الأخير للمخطوطات الحلبية ٩٥
خزائن أخرىٰ ونُسَخٌ ووقفيات ٩٩
التراث المخطوط في حلب علىٰ سَفُود الاضطرابات السياسية ١٠٠
التشكُّل المهم لخزائن التراث المخطوط في دمشق ١٠٤
موقع (الظاهرية) وحماية مخطوطاتها زمن الحروب ١٠٨
أثر التجديد النهضوي علىٰ التراث المخطوط.. من (فقدان الخزائن)
إلىٰ (مكتبة وطنية) ١٠٩
فهرسة (الظاهرية).. تجاوز الضياع وحَفْز البحث ١١٦

الفصل الثاني

النكبة والتراث المخطوط في فلسطين ١٢١-١٣٧
(التراث المحاصر والمستولىٰ عليه)

إعادة تشكيل خزائن القدس بُعيد معركة حطين ١٢٢
خزائن التراث المخطوط في فلسطين قبيل النكبة ١٢٦
الخزانتان: الخالدية والظاهرية ١٣٠
أثر العقدة اليهودية علىٰ التراث المخطوط في فلسطين ١٣٣

الفصل الثالث

التراث المخطوط في العراق ١٣٩-١٦٣
بين كارثتي المغول والاحتلال الأميركي

المتحف العراقي.. أوسع خزانة عصرية للمخطوطات العراقية:
أثر سلبي تصنيفي أبعد المحتوىٰ عن روح العصر ١٤١

دار المخطوطات العراقية (دار صدام سابقًا): نوادر المخطوطات..
آلاف النُسخ مهددة بالفقدان تلفًا ١٥٣
الاحتلال الأميركي: فقدان خزائن بأكملها.. غموض في واقع
المخطوطات ! ١٥٨
الجيش الأميركي يجتاح (جبهة المخطوطات) ١٥٩
خاتمة: ماذا علينا أن نفعل؟ ١٦٥-١٦٨
كشاف الجداول ١٦٩-١٧٠
المصادر والمراجع ١٧١-١٧٤
المحتويات ١٧٥-١٧٧

* * *

ثمن النسخة:

داخل مصر : ٢٥ جنيهًا.

خارج مصر : ٧ دولارات أمريكية

(شاملة نفقات البريد)

